وائل رداد

سيمفونية وادى الظلال

رواية

سندباد للنشر والإعلام

سيمفونية وادي الظلال
وائل رداد
سندباد للنشر والإعلام

عقارب ساعة "الرولكس" الفضية تُشير الآن للسابعة صباحًا.. بصقت السيجارة المتدلية من فمي متأملًا المباني والناس والطيور المحلقة، منظر ولا أروع، يوحي بضآلة كل شيء، بحقارة كل شيء، وبخاصة من فوق بناية ذات علو يناهز العشرة طوابق!

لقد أعلنت أخيرًا!

يدي اليسرى التي هشمتها يومًا تداعب نسائم الهواء برفق وحنو، بينما حملت الأخرى حقيبة زيتونية اللون من جلد التماسيح، وتفكرت هنيهة ـ متهكمًا ـ في السبب الذي يدعو غالبية المنتحرين إلى القفز من فوق البنايات حاملين معهم حقائبهم، بل يحشون داخلها المال والثياب وحتى معلبات الطعام المحفوظ أحيانًا، وكأنها أهم مستلزماتهم في رحلتهم الأخيرة نحو الآخرة!



"الفراغ مفسدة...

إنه بداية جميع النقائص، وتتويج جميع الفضائل.."

فرانتز كافكا

عقارب ساعة "الروليكس" الفضية تشير الآن للسابعة صباحًا.. بصقت السيجارة المتدلية من فمي متأملا المباني والناس والطيور المحلقة، منظر ولا أروع، يوحي بضآلة كل شيء، بحقارة كل شيء، وبخاصة من فوق بناية ذات علو يناهز العشرة طوابق!

لقد أعتقت أخيرًا!

يدي اليسرى التي هشمتها يومًا تداعب نسائم الهواء برفق وحنو، بينما حملت الأخرى حقيبة زيتونية اللون من جلد التماسيح، وتفكرت هنيهة ــ متهكمًا ــ في السبب الذي يدعو غالبية المنتحرين إلى القفز من فوق البنايات حاملين معهم حقائبهم، بل ويضعون داخلها المال والثياب وحتى معلبات الطعام المحفوظ أحيانًا، وكأنها أهم مستلزماتهم في رحلتهم الأخيرة نحو الآخرة!

نظرت للأسفل، فأبصرت شابا يرتدي قبعة حارس المرمى بالمقلوب، ويعكف بهمة على تنظيف نوافذ البناية بالتدلي عن طريق شرفة تعمل بالسقالات، وهو منظر مألوف ومخيف بالنسبة للبعض، مهنة الخطر والخوف والمجازفة من أجل كسب لقمة عيش لا تسد..

وضعت حقيبتي أرضًا، ثم أخرجت من جيب البدلة شريطًا لاصقًا من نوع شفاف نزعت منه قطعًا قمت بتثبيتها على نظاراتي الطبية بإحكام! وبعدما فرغت، عاودت التنهد ومطالعة الساعة للتأكد من توقيتها، ثم همست لنفسي بتؤدة:

ـ لقد حان الوقت..

وبدون إضاعة مزيد منه وثبت! لم أشعر بخوف من أي نوع، لم أصرخ، حتى أنني أبقيت بصري مفتوحا متسعا كي أشاهد كل شيء! انقلب جسمي وهو يتجه نحو الأرض كصاروخ أطلق لإصابة هدف! الهواء يعابث شعري الغزير بجنون، نظاراتي بدت مثبتة بشكل جيد إلى وجهي.. كنت أنظر اتجاه الشاب الذي ترك ما يفعله وهو يتحرك باتجاهي مسرعًا!

مدَّ الشاب ذراعه من فوق شرفته وبأسلوب يشابه العقافة، كان توقيته ممتازا، ففي اللحظة الأخيرة تمكن من تلقفي، ومن ثم تثبيتي بذراعيه كي لا يسقط معي!

ـ "يا لك من معتوه!"

كذا هتف الشاب بهلع وهو يتشبث بحبال السقالات التي ارتجت بقوة مرعبة والعرق يتفصد منه بعد المخاطرة المجنونة التي نفذها، فارتسم قوسان على جانبي فمي من جراء بسمتي العريضة!

جلس الشاب على متن شرفته المترنحة معاونا إياي على الجلوس معه.. ثم نظر لي مدققا قبل أن يقول لاهثا:

ـ لابد وأنك سمسار بورصة! هيئتك وكراهيتك للعيش تشيان بذلك!

ابتسامتي تتسع، والشاب ينزع قبعته كي يمسح العرق عن جبهته قائلا وهو يشهق:

ـ أيها الأحمق! الانتحار لا يقوم به سوى ملحد أو مجنون!

ضحكتُ ضحكة مجاملة، فتأملني الشاب هامسا بشك:

ـ أنت معتوه!

ـ شكرا على إنقاذي، كيف أعود للسطح؟

ـ كي ترمي بنفسك مجددا؟!

ـ كي أستعيد حقيبتي التي تركتها فوق!

ـ لا بد وأنك مجنون حتما!

ـ إذن فهذا هو!

ـ سعيد بجنونك؟

ـ لابد وأن أسعد، فقد حظيت بشيء على الأقل بعد تلك الرحلة العصيبة!

ـ عن أي رحلة تتحدث؟

ـ رحلة عبور نهر الزمن للأمام، الرحلة إلى المستقبل!

وشعرتُ بانقباضة غريبة في أمعائي كنت قد نسيتها منذ سنوات، مذ خرجت حرا للمرة الأولى إلى العالم الجديد..

نظرت إلى الشاب، فوجدته يعدّل من وضعية القبعة على رأسه وهو يبتسم ابتسامة أرعبتني بشدة..

لابد وأنه واحد آخر من أولئك الزوار!

قال وهو يخرج من جيبه سيجارة من ذات الصنف الذي اعتدت تدخينه:

ـ استيقظ أيها المتأمل التعس! سيجارة أخرى؟!

أرجحت برأسي أن لا، محدقا بتربص في تقاسيم الشاب الذي رمى السيجارة في الهواء قائلا بوجل:

ـ أنت خرجت من بطن الظلمة كي تواجه عالما مستقبليا ينحدر للأسوأ، وللأسوأ دائما، قد تجد أمورا مبهجة، تغيرات قليلة طرأت، ولكن بالنسبة لمن؟ لك؟ ستجد أناسا عاشوا سنوات عمرهم من دون الشعور بأي تغيير، وقد اصطحبوا ذلك الشعور البغيض معهم للقبر في النهاية، لم يأبهوا للتغيرات في حياتهم، عاشوا بصورة طبيعية وماتوا بصورة طبيعية..

ـ كنت أحاول أن..

ـ وقد فشلت! حتى السجين الذي خرج من سجنه سيجد الوقت الملائم لاعتياد الأمر والاندماج في حياته الجديدة، سيجد عملا، ولربما زوجة ينجب منها أولادا يحملون اسمه ويسعدون به رغم ماضي والدهم!

ـ أنا لا أريد الزواج والإنجاب! أريد رؤية..

ـ المستقبل؟ المستقبل كلمة تناسب كتاب الخيال العلمي! قلة متفائلة بصدده، والأكثرية تتوقع كارثة الكوارث بحلوله! فما الذي توقعت رؤيته؟ ما الذي انتظرت حدوثه؟ تنزيلات على الملابس؟

لكنني ظللت أردد بغلظة:

ـ المستقبل! سأرى المستقبل!

ـ لقد كدت قبل قليل ترى سعير جهنم!

ـ يجب أن أراه.. المستقبل!

وانكفأت على وجهي محدقا في الفراغ الشاسع.. حيث تضارب النور مع الظلال، حيث تتقوض الصور والمشاهد من المنظور الأول، حيث ترحل الحقيقة ويظل الوهم الحالك كالليل.. رأيت النوافذ تفتح، رأيت وجوها لم أميّز ملامحها، وسمعت واحدة منها تصيح:

ـ استدعوا الإسعاف حالا!

*****

عودة غير حميدة لسرير الأربطة الأربعة الجلدية، والبيجامة القذرة التي استعملها نزيل آخر قبلي..

د.(سترانجلوف) مرة أخرى! مع ذات مشكلة تسرب اللعاب من ركن فمه، وكأنه ثقب في ماسورة مياه..

وعندما ابتسم، كانت بسمته ذات البسمة الصفراء اللعينة:

ـ أرى ألا فائدة ترجى منك! نحن نعتقك من هنا وأنت تستغل الفرصة لترمي بنفسك من عل؟ أهذا ما اتفقنا عليه؟

ـ أنا حر فيما أصنعه! أطلق سراحي أرجوك!

ـ كي تعاود الكرة؟ آسف، هذه المرة ستظل في ضيافتنا لفترة أطول .. لولا عناية الله وسقوطك على شرفة تنظيف النوافذ لكنت رأيت ما هو أسوأ من الدنيا!

ـ أنا لم أسقط، الشاب الذي ينظف النوافذ أنقذني!

ـ أنت تعلم في قرارة نفسك بأنك تهلوس! ما فعلته بنفسك لم يكن أمرا مفيدا! رباه! ما الذي فعلته بنفسك؟

ـ أردت رؤية المستقبل!

ـ مستقبلك الآن معنا يا سيدي، فحاول الاعتياد على ذلك! دعني أعطيك هذه الحقنة اللطيفة الآن كي تنعم بنوم مريح..

ـ لا أريد أن أنام!! أريد الخروج من هنا!!

لكن الطبيب تجاهلني وهو يثقب جلد ساعدي بحقنة السعادة التي ستريحني من هموم أفكاري الجنونية..

الفصل الأول

في زاوية "الكافيه" شبه المعتمة تجدني..

كنت أتلصص على ما أحب وأمقت ببصر يعاني قصر النظر، حيث جعل الوجوه من حولي مبهمة الملامح، والأجساد هائمة كأرواح لم تجد السكينة في قبورها، فإن أطلت الحملقة داهمني دوار مزعج..

وعندما ارتدي النظارات الطبية التي ابتعتها حديثا، يغدو كل شيء واضحا كأفضل ما يمكن.. أخيرا سأتمكن من قراءة أرقام لوحات السيارات، وترجمة الأفلام الأجنبية على شاشة التلفاز!

حاولت الشعور بالسعادة، بالاطمئنان على الأقل من أني لن أشاهد الصور مشوشة مرة أخرى، لكن عبثا.. فقد انتهت اللحظة الهانئة منذ الدقائق الأولية التي رمقت من خلالها العالم عبر النظارات الجديدة! بداية شعرت أنها ستضايقني، إذ لم أعتد وضع شيء على وجهي بخلاف الماء والصابون لغسله، لكنني اعتدت الأمر عقب دقائق، كأنها جزء من الوجه كالفم والأنف والعينين!

على سطح الطاولة كانت الرواية التي قرأتها عشرات المرات موضوعة بحيث تطالعني صورة الغلاف المبهمة، "بورتريه" سريالي لشخص غامض بادٍ كالأشباح.. تلمست بأناملي الغلاف بغم.. فجأة

دخل ذلك الشاب مبهم الملامح المكان، فتابعته بناظري.. بحثت عن النظارات في جيبي قبل اكتشافي بأن انحدار أنفي كان يحملها!

كما لو كان هذا الاختراع الرائع يكذب أيضا! إن الفتى مشوه بصورة مثيرة للغثيان، وهو إما مجرد مسكين بريء، أو أرعن متهور أودى بحياة عدد من الأبرياء في حادث سيارة مروع جعله على تلك الصورة المفزعة.. لم أكن ممن يتأثرون بمثل تلك المناظر بسهولة، لكن قطعة الحلوى بفمي صارت عديمة المذاق..

نزعتُ النظارات متجهما، فتحوّل وجه الفتى لآخر غير واضح، كسائر الوجوه التي تحملها أجساد بلا معالم – أو كما أراها بلا نظارات طبعا–، فاعتبرت ذلك إيجابية تظهر أخيرا لمن يعانون من داء قصر النظر اللعين!

ـ "ريد بول.."

نبرة صوته متحشرجة ومشحونة بقدر غير هين من الجفاء، فحاولت تجاهله بالإنصات إلى بعض ما يقوله أولئك المهرجون لفتياتهم اللواتي يتضاحكن طوال الوقت متظاهرات بحسن الإنصات، ربما لنكات تخدش الحياء، وعقب هذه الليلة تصير هي النكتة التي يسردها هو.على واحدة أخرى، أو على رفاقه في المقهى..

ربما كنت أفضل وجوه الجميع وهي مبهمة المعالم، ربما تلك هي وجوههم الحقيقية.. وعندما أرتدي نظاراتي ـ التي كلفتني مبلغا طائلا ـ أشاهد تلك الأقنعة التي حدثنا عنها الفلاسفة يوما..

كان يوما كريها ثقيل الوطأة على النفس، من أيام عطلة نهاية الأسبوع الحافلة بالملل دائما وأبدا..

عجزتُ عن إنهاء قطعة "الجاتوه" التي شوهتها بالشوكة، والشاي برد تماما، فأشعلت سيجارة جديدة بأصابع مرتعدة..

كنت أدخن كلما شعرت بضيق في التنفس! وهو أمر اعتدته رغم غرابته، لم أحاول استشارة طبيب، فقد مقت الأطباء والمستشفيات ورائحة التعقيم المزكمة للأنوف.. كانت روائح المستشفيات تذكرني بالمرض والعجز البشري دائما!

لم أفهم سر تعكر مزاجي والجميع مبتسم، والجميع ضاحك!

كانت حالي بالفعل يرثى لها، وبوقاحة مزعجة أخذ أحد الحاضرين يرصد انفعالاتي الغريبة متعجبا، قبل أن يمس ذراع فتاته ليريها منظري الذي حسبه سيكون مسليا لكليهما!

تجاهلتهما وأصابعي تهرش فروة رأسي الفاحمة، حككت أنفي ـ بالأحرى فركته ـ وخدشت الطاولة ذات الخشب المصقول كالمرآة بأظافري كأنما أشوه انعكاس وجهي عليها، وبأسناني أصدرت صوت زئزئة كادت أعصابي أن تتلف لسماعه، ورغم ذلك لم أستطع إيقافه!

انتابتني رغبة جامحة في تحطيم الطبق والقدح، في إطفاء السيجارة في راحة يدي، ومن ثم الصراخ حتى الاختناق! بالطبع لم أصنع ذلك بتاتا.. فنحن قوم نحب الظهور بمظهر السادة المتحضرين عن طريق أسخف الأفاعيل وأتفهها!

أتراها اللحظات التي يقرر بها المرء الخلاص من روحه؟ لست بكافر أحمق يرغب في زيادة متاعبه بالانتحار، لكنني أريد لنوبة الهيجان هذه أن تتوقف حالا! فقد زاد عدد الذين يحملقون، وأنا أكره لفت الأنظار كمهرج داخل سيرك، ولو حتى كقتيل في حادث سيارة!

*****

سمعتُ صوتا حسبته المادة الخام المصنعة للرقة، أحسبه خاطبني قائلا:

ـ هلا هدأت قليلا؟ سيكون من المؤسف انتحار واحد آخر!

كان كلاما مفعوله كالسحر، فقد هدأت إثره على الفور، لدرجة شكي بأن كل ما مررت به من عواصف عصبية هوجاء كان مجرد تصنع مراده لفت الأنظار فحسب...!

الأمر مناف لطبعي لكنني فكرت به للأسف..

قلت في حرج بالغ:

ـ لست أطيق الحياة، لكنني لن أنتحر بكل تأكيد..

ونظرتُ لها مرتبكا، فوجدت فتاة ذات أنوثة آسرة، آسرة بطريقة سحرية، ذات شعر أسود بدا كالثوب الخارج من عند الكواء، مصففا وطويلا كما أحب لشعر الفتاة أن يكونه.

بشرتها فاتحة قمحية، وأجمل ما فيها تبرجها البسيط والمتقن رغم ذلك، وفستانها الأخضر الجميل غاية بالاحتشام..

تبدت في ناظري كغيداء الجنة، ثمة شبان يحبون جعل كل فتاة عادتهم ملكة جمال أسطورية إرضاء للفحولة الذكورية النرجسية لديهم، لست منهم، أو أن هذا ما أفضل اعتقاده، والفتاة حقا رائعة.. في نظري أنا على الأقل!

بقطعتين براقتين من اللؤلؤ الأسود تأملتني هامسة ببسمة حلوة:

ـ هل أجلس؟

وهل وُجد الذكر الذي بإمكانه رفض مثل هذا المطلب الغريب؟ وهو غريب لأني لست بصاحبه، ومبادرتها تلك جعلتني مرتبكا لحد بعيد كما لو كنت سأخضع لاختبار عسير بعد لحظات..

كدت أنهض لمعاونتها على الجلوس قبل أن أغير رأيي.. لست فارسا وليست هي "الليدي"! هنالك أمور كثر في الكون الفسيح التفكير بها أهم ألف مرة من الحذر أثناء مجالسة فتاة ما!

أجبتها أثناء التفكير بذلك كله:

ـ تفضلي أرجوك..

ـ ما المشكلة؟

ـ وهل أنت محللة أمراض نفسية؟ ربما طالبة تود تجربة تخصصها الذي نالته حديثا علي؟

طبعا ما قلته كان الوقاحة بعينها، وإذا انصرفت غاضبة فالحق كل الحق معها!

لكنها لم تغضب أو تتصرف لحسن الحظ، قالت فقط بذات الهمس:

ـــ لا أظنك من النوع العدائي!

ـــ حقا لست كذلك، أنا من النوع الذي تصطرع الأفكار داخل رأسه طوال الوقت..

ـــ وعن ماذا تدور تلك الأفكار المصطرعة؟

ـــ عن عشرات المواضيع وتلك هي المأساة، لست فيلسوفا ولا مخترعا أو مكتشفا أو حتى كاتبا، لكنني مع ذلك أفكر وأتخيل في كل الأوقات والأماكن الملائمة وغير الملائمة، أخترع أسئلة وأبتكر لها أجوبة غير مرضية، ولا أعلم لماذا لا أصير..

وهنا صمتُ لإفراطي في الكلام ـــ أم تهربا من الإجابة؟ ـــ، فنابت هي عني بالاسترسال:

ـــ لماذا لا تصير كبقية الناس، أعني كما الحياة العادية الرتيبة!

ـــ أحيانا أحسدهم على السعادة المزعومة التي يعايشونها، أشعر بضجيج أفكاري يكاد يودي بي، أما عنهم ففكرهم منحصر في سبل تحمل أعباء الحياة أو متعها..

وفي ذات الوقت أكره أن أصير مثلهم، أحمل هاتفا نقالا وأرتدي آخر صرعات الموضة، وأشرع بمواعدة الفتيات عن طريق "الإنترنت"، أو أذهب لحفلات مطربين يتواثبون كالسعادين على خشبة المسرح، وأهتم بمباريات كرة القدم والمصارعة الحرة وسباقات السيارات..

بزغ حنو عذب على شفتيها حين ردَّت:

ـــ يا مسكين!

ـــ أتسخرين مني؟!

ـــ من يفكر بطريقتك التي تتقاطر مرارة لهو مسكين، مسكين يقف في الظلال غير المرئية ليرتجف من البرد القارص، وهو يرقب أسوار قصر مزين بالأضواء الملونة المبهرة، حيث الجميع سعداء يحتفلون!

قد يكون بإمكانه الدخول، لكنه يرفض منح نفسه بعض المتعة، ثمة سحر أخاذ في الشعور بالوحدة والتعاسة والعذاب.. بأنه خلق لكي لا يسعد، بل ليرمق الوجوه السعيدة متجهما!

استشعرتُ شيئا من السخف في كلامها المنمق، فقلت بفظاظة:

ـــ أتستعملين تعابير وتشبيهات متحذلقة في كلامك لأنك تكتبين الشعر، وتحاولين الظفر بقصيدة عصماء من نتاج العذابات التي تكاد أن تشقق لي رأسي؟

قلت ما قلته وندمت فورا على قوله.. لماذا أتفوه بمثل تلك الحماقات يا ترى؟

سألت مباغتة:

ـــ لماذا كذبت؟

ـــ أنا؟

ـــ قلت أنك لست كاتبا، لكنك كذلك..

أخذت أصابعي تتحسس الطاولة من أسفلها متخيلا وجود قطعة قديمة من العلكة ملتصقة هنالك، في حين استرسلت الفتاة:

ـــ اغفر لي وقاحتي واعذرني، لكنني لم أتمكن من تصور

شاب مثلك يفكر على تلك الشاكلة ولم يشعر برغبة في نقل مشاعره على الورق.. في قصة قصيرة، في بيت شعر، ولو حتى في خاطرة بسيطة!

ـ أتخجل من الاعتراف بأنك تكتب؟

أجبتُ بخجل:

ـ ليس تماما، لكنني أشعر بأني أمارس إثما حين أمسك القلم وأدوّن مثل تلك الهموم..

ـ هل تبينت السبب؟ أتظاهرت بمعرفته على الأقل؟

ـ لا أدري، قد صار من يكتب يضيع وقته سدى مع من لا يقرأ سوى الترهات..

ـ هنالك من يقرأ ويهتم بما يقرؤه..

ـ بأن يحوله لمزيد من الأفكار المتعبة للعقل؟

ـ أتخشى تحويل من يقرأ لك إلى نسخة منك بعذاباتك وهمومك؟

ـ ربما..

ـ يا مسكين!

ـ ولماذا هذه المرة؟

ـ لأنك لا تعلم لماذا ولمن تكتب، تشعر بالحاجة فقط لأن تجد ما تفكر به مدونا، وبأن ما كتبته لن يكون له ذات الاهتمام الذي يولونه الناس لمباراة في كرة القدم أو حفلة لمطرب!

وقطعت كلامها باسمة وهي تضع كفها على خدها، ثم همست:

ـ سعيد لعدم استخدامي التعابير والتشابيه هذه المرة؟

تبسمتُ برغمي مجيبا:

ـ بل افتقدتها هذه المرة!

جاء النادل بناء على إشارتها له، فقالت مملية طلباتها على مسمعه:

ـ قطعة "جاتوه" بالشوكولاتة مع قدح شاي خفيف لو تكرمت!

رحل النادل، فأسرعتُ أقول متعجبا:

ـ لا أظنها مصادفة، أعني أن يكون ذوقك كذوقي!

ـ ربما!

صمتنا لبعض الوقت قبل مبادرتي بالسؤال:

ـ ما اسمكِ؟

ـ هل تؤمن حقا بأهمية الأسماء؟ قد يكون(سلمى) أو(ليلى)، ألهذه الدرجة تهمك معرفته؟

ـ ما بالك تحدق بي مستغربا هكذا؟

ـ أتراكِ ذكية لحد العبقرية في الاستنتاج أم تقرئين الأفكار فحسب؟

ـ ما الذي دفعك لقول ذلك؟

ـ مسألة الأسماء، مرة ركبت الحافلة المتجهة نحو العاصمة، على متنها قابلت طالبا درس الفلسفة لأربعة أعوام، فأعجبت بشجاعته لاختياره مجالا لن يفيده كثيرا في الحياة العملية، اكتشفت بأن لنا ميولا مشتركة بالمصادفة، فهو على سبيل المثال يعشق أغاني عام

١٩٩٥ بالذات، وأنا أعشق الأفلام الأجنبية لذلك العام.. وحين توقفت الحافلة عند محطتي سألني عن اسمي، فأجبته: وما أهمية الأسماء؟ ما أهمية أن أكون (سالم) أو(لؤي) مادمنا لن نلتقي من جديد؟

ـ لماذا قلت له ذلك؟ لماذا لم تأخذ عنوانه أو رقم هاتفه؟

ـ أتصدقين أنني أجهل السبب؟ ثمة جو شاعري خلاب من تلكم الأجواء التي تدفعك لمسايرتها انتابني في تلك اللحظة، كما لو كنت بطل فيلم ما أو رواية، قد قلت ما قلته لأن ما حدث كان كحكاية لا بأس بها تروى على أرض الواقع..

ـ جميل!

افترضت أن ما غمر وجهها بتلك اللحظة كان الاستحسان، فخامرني شعور بالغبطة لذلك.. هنالك شبان يعجبون الفتيات من النظرة الأولى، وثمة جنود مجهولون لا تشعر الأنثى بهم أو بأنهم يستحقون الاهتمام إلا لدى مجالستها لهم والإنصات إليهم..

قالت بلهجة مهتمة:

ـ نظرتك للحياة فيها منافذ ممتازة للشعور بمتعتها، لديك الفرصة لكي تكون مغامرا بالعقل والجسد..

ـ أنا أقرب للخمول، والمغامرة في حياتي يتعسر تحقيقها..

ـ ألأنه الواقع بقساوته المفرطة حيث لا يمكن للمغامرة أن تتحقق؟

ـ العديد من الأمور والوقائع تشعرني بأن فرصتي مع المغامرة تكاد تكون شبه معدومة..

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل قصر النظر اللعين الذي سكن بصري! مثل نحولي الذي جعلني أنهزم سريعا إذا ما خضت مشاجرة ما، مثل الضجر الذي ينتابني على الفور لدى ممارستي أي عمل، وسأتعب إذا ما أحصيت لك الأمثلة إجمالا..

ـ أفهم ما تريد قوله، إن روحك مثقلة بهموم نفسية وجسدية، والواحد منا لا يتوقع أن يسير على غير خطوط الروتين المرسومة لنا جميعا.. هنالك من يحيدون عن مثل تلك الخطوط، من يغيرون مسار الطريق للعمل ذات صباح مشرق، فيتعرضون لموقف يعتبرونه حدثا جللا، كحادث تصادم أو جريمة قتل أو سرقة! فإذا صاروا من أبطال ذلك الموقف وكتبت لهم النجاة منه اعتبروا أنفسهم ممن نجحوا في دحر الروتين البغيض ليوم واحد، أو حسب المدة التي استغرقوها! عندها قد يؤمنون بأهمية كتابة صفحة من مذكراتهم لوصف انتصار ذلك اليوم الرائع.. درس في الحياة لابد وأن يتذكره كل الناس! قد يؤمنون عندئذ بأهمية تكرار التجربة كي يتمكنوا من ملء الصفحات بالحبر، تلك الصفحات التي ستشهد لهم على خلاصهم من هيمنة الروتين القابضة على أنفاسنا طيلة الوقت..

نظرتُ لها مطولا، ثم قلبت الرواية التي كنت أطالعها حتى بلغت الغلاف الأخير، ووضعت يدي على صورة المؤلفة متمتما بلهجة المنتصر:

ـ "كعكة العليق الرمادية"!

لم يطرأ أي تغير على سكناتها أو طريقة جلستها، فاسترسلتُ باسما:

ــ إذن فأنت هي (كاتيا إحسان) صاحبة هذه الرواية الغريبة!

ــ أشعر بالإطراء لمجالسة شخص غريب أكتشف بعدها أنه قرأ روايتي الوحيدة..

احتفظتُ بتهكمي لنفسي.. لابد وأنها قد لمحت كتابها معي، فاعترتها الغبطة، وأرادت معرفة رأيي فحسب!

قلت بجفاء وعن عمد:

ــ لا بأس بها، لم أفهم المغزى من عنوان الرواية الغريب..

جاء النادل ليضع ما طلبته هي على المنضدة أمامها، وليرفع ما أحدثته أنا من أضرار بقطعة "الجاتوه"، وسألني بالإنجليزية ــ رغم أنه عربي ــ ما إذا كنت راغبا بمزيد من الشاي..

وما إن رحل حتى سارعت (كاتيا) بالتساؤل الملهوف:

ــ هل قلت بأن عنوان الرواية لم يعجبك؟

ــ قلت:

لم أفهم مغزاه، إنه عنوان يكاد يفيض بما يحمل من حذلقة!

ــ ولماذا تشعر أنه متحذلق؟

ــ لأنه بلا معنى! أظنه محاولة لإضفاء النص برهبنة الأدب الرفيع!

ــ لكن البطل..

ــ أعلم، في الفصل الثالث ــ حسبما أذكر ــ يتناول البطل كعكة العليق التي قدمتها له النادلة، قائلا لنفسه بأسلوب شكسبيري

متحذلق: "لو كانت كعكة العليق هذه رمادية اللون لاتهمتها بلا تردد"! جملة قد تعنين بها شيئا ــ كأن تكون الكعكة مسمومة فيلتهمها البطل ليريح ويرتاح ــ وقد لا تعني شيئا على الإطلاق سوى الاحتفاظ بالعنوان الذي أعجبك لسبب ما أجهله..

بدت شاردة الذهن، فقلت لنفسي بأن عليها تقبل شتى أشكال النقد، ليست أديبة حائزة على "بوليتزر" كي تستنكر تقييمي المتواضع لرواية وحيدة كتبتها، يجب أن تكون متفتحة ذات صدر رحب للنقد البناء أو الهدام حتى!

قالت متجهمة هذه المرة:

ــ أتعلم فيما أفكر؟

ــ أنك تسرعتِ بطلب سماع رأيي؟

ــ أفكر في معجزة تمكنني من سحب كل نسخ روايتي من أرفف المكتبات لتعديل الخطأ الذي ارتكبته، فهو بحق خطأ جسيم!

قلت محاولا تهوين الأمر عليها لأن تقبلها المتواضع لرأيي قد أثر بي فورا:

ــ على كل حال لست كاتبا قديرا تنصتين لرأيه بجل الاحترام والاهتمام، فقد أكون مخطئا، وأنك لربما استعملت أحد أهم أسس بنيان العنوان المتكيف مع الرواية أو العكس.. شيء من ذاك القبيل!

ضحكت قائلة:

ــ تقول كلاما لا بأس به، إنه جميل بالنسبة لي!

عبثت يدي لا شعوريا داخل جيبي، والغريب أنها أسرعت تقول:

ــ هل تدخن؟ ربما تهوى مص حبوب القهوة أو مضغ العلكة؟

ــ كلا..

ــ ما الذي كنت ستخرجه من جيبك إذن؟

ــ لا شيء ولا تسأليني عن موضوع العبث في الجيوب رجاء!

ــ ألهذه الدرجة هو موضوع معقد؟

ــ كل الموضوعات المتعلقة بالطبائع البشرية وتصرفاتها الغريبة مواضيع معقدة، كالسير في طريق ممتلئ بالمربعات الواسعة! لسبب أجهله أجد نفسي سائرا عليها وقد خشيت وضع قدمي في منتصف واحدة من خطوطها، كأنما أخاف عليها من أن تقطع أو تشل، أو أني أعبر مستنقعا أخاف الغرق بداخله!

ــ يبدو وأنك كثير التفكير بالفعل..

ــ لست عبقريا بل أحمق، إذ لا فائدة ترجى من التفكير بمربعات الطرق، أو تصاميم سجاجيد الصلاة المزخرفة في المساجد، أو بكتابة حروف عليها ومن ثم مسحها بالكف، أو برسم أشكال مبهمة على طاولة الدراسة، أو متابعة البقع الغريبة المظللة أو المعتمة داخل نظرك!

قالت ضاحكة:

ــ أية بقع غريبة؟

ــ تلك التي تصعد وتهبط طيلة الوقت! ليس لها أوقات محددة لكنها كثيرا ما تظهر عقب استيقاظك من النوم!

ــ يجب أن تكف عن تسليم عقلك لمثل تلك الأمور، إن مجرد التفكير بها مزعج حتما!

ــ معك كل الحق، أفضل التفكير بالألحان الحزينة التي كنت أسمعها في طفولتي..

في فيلم شاهدته وأنا صغير أو رواية قرأتها..

ربما في حادثة وقعت لي، يجب أن تكون طريفة ولو انتهت بي داخل المستشفى أو السجن!

ــ الذكريات غالية..

ــ بل هي أثمن ما نملك! إنها الألبوم الذي نفتحه كلما ضاقت بنا الدنيا كي نتذكر كم كنا سعداء يوما، فلا نستسلم كليا للمنغصات اللعينة التي نواجهها، يوما ما قد لا نجد سوى ذكرياتنا كي نشاطرها مع أبنائنا وأحفادنا..

ــ أتفكر في تأسيس عائلة؟

ــ تأسيس العائلة بحاجة إلى رجل محترف..

وصمتنا لوهلة كأن لعبة تبادل الأحاديث الطريفة قد أرهقتنا..

شربتُ قليلا من الشاي الذي لا أخلط معه السكر بتاتا، وقد لاحظت (كاتيا) ذلك، فقالت مبدية ملاحظتها:

ــ تريد أن تشعر بالمرارة في فمك وبالك مشغول بمرارة الخلق بأكمله؟

ــ في الواقع أحب شرب الشاي بدون سكر لدى التهامي الحلوى كالجاتوه بالشوكولاتة!

عاودت البسمة اتخاذ محلها بين شفتيها الورديتين، فشعرت بلحظة وهن، لحظة تساءلت فيها عن مذاق هاتين الشفتين الممتلئتين.. ثم أحسست بخجل مروع، إنني بذلك أسخر مما قلناه طوال.. ترى كم مضى علينا من الوقت ونحن نتحدث؟ لم أشعر بمروره على الإطلاق!

سمعتها تقول:

ــ أعترف بأن حديثنا كان ممتعا، لقد استمتعت كثيرا..

هنا شعرتُ بالضيق.. أتراه الفراق الذي لم أحسب له حسابا ونسيت التخوف منه؟

دمدمت مماطلا:

ــ لم تحدثيني عن نفسك..

ــ كل ما دار بيننا أهم ألف مرة من التعارف، يكفي أن تعلم أنني طالبة في كلية الآداب، أعشق المطالعة وأحب الشاي الخفيف مع قطعة "جاتوه" بالشوكولاتة! وبأن هذه هي المرة.. لنقل الأولى التي أجالس بها شابا في حياتي بأسرها!

كأن كل مواضيع النقاش في الأرض قد زالت! لترحل إذن، فقد كانت مجرد صورة جميلة أخرى ستوضع داخل ألبوم ذكرياتي المهترىء، فاللحظات الجميلة لا يمكن أن تستمر للأبد..

لكنها لم ترحل في الحال، فقد نظرت إليّ قائلة برقة:

ــ لست أجد لقبا مناسبا لك، الساذج؟ المداهن؟ اليائس؟

ــ لا بأس بالأخير، له نكهة الجوال الذي فقد كل شيء ولا

يملك سوى حياته ليخسرها..

ــ بديع! وأنا الحالمة طوال الوقت بالعدل والخلاص من المرض والجوع والتخلف، وتنشد الكفاح لأجل السلام وحفظ البشرية من قوانين الظلم والتعسف!

ــ مهلا، أهي رواية جديدة؟

ــ لقد أوحيت لي بعدة أشياء ممتازة!

ــ وتتحول عذاباتي لتسلية؟

ــ الروايات ليست للتسلية فحسب، إنها ثقافة وتعابير وعالم أفضل من عالمنا بعشرات المرات، يجب أن تكون ملما بذلك كله، ألست كاتبا؟ والآن ستغدو معلما! ألا يعجبك ذلك؟

ــ ربما!

وأخيراً تحقق الكابوس! نهضت حاملة حقيبتها كما لو كانت صحفية ذات همة فرغت للتو من لقاء شخصية هامة!

ــ "هل سأراكِ مجددا؟"

تأملتني بحنو، ربما بإشفاق، ثم همست بما حسبته حزنا:

ــ لا أدري صدقا، وغالبا ما أتمنى عدم حصوله! أتذكر صاحبك في الحافلة الذي درس الفلسفة؟ إن الموقف جميل، وسيصير أجمل إذا ما تعاملنا معه بوتيرة فيلم سينمائي أو حكاية تروى..

يمكن القول بأن هذه الجولة ضد الروتين قد انتهت لصالحنا، وبأننا منحنا بعضنا البعض فرصة التعلم والتفهم لأحوالنا دون إقحام المسائل العاطفية أو الأفكار الخبيثة، لنبق الأمور هكذا، فلا أظن

اللقاء يتكرر..

ــ قد يتكرر مصادفة..

ــ الله أعلم، ولكن لا تسيء فهمي إن أخبرتك برغبتي في عدم تكراره لأنه جميل كما هو، ويمنحناــ كما اتفقنا سابقاــ شعور أبطال الروايات أو الأفلام السينمائية!

ــ حتى أبطال الأفلام والروايات قد يظفرون أحيانا بأجزاء تالية

ــ لنقل رواية كلاسيكية جميلة إذن! لست أملك المزيد من الكلمات لأنها ستفسد الجو البديع الذي خلقناه لأنفسنا، لقد استمتعت بكل لحظة دارت بيننا، وأرغب أن يظل ذلك بنكهة خاصة للذكرى فقط..

ــ إذن، هل أودعك بقلب مطمئن؟

ــ إلى اللقاء!

بدت وكأنها تفكر، مما جعل الأمل يتواثب بين ضلوعي مجددا.. صوّبت وجهها اتجاهي، وكادت أن تنطق بشيء لولا أن اقتربت منا في تلك اللحظة فتاة أخرى مليحة الوجه، شعرها بني ثائر كغجرية، وعيونها واسعة كعيون الدمى..

ترتدي "الجينز" الضيق وتحمل حقيبة مضحكة على شكل أرنب طفولي الملامح.. لم تعرني أدنى اهتمام، جذبت فقط ذراع (كاتيا) قائلة لها بضجر:

ــ أستبقين هكذا للأبد؟ قد تأخرنا كثيرا..

ــ أهلا بصديقتي العزيزة (نسرين)!

بدت من طراز متكبر، ذاك الذي لم أستسغه رغم تمتعه برونق الجمال والنضارة والسحر، لكنه سحر مخالف للذي تمتلكه (كاتيا) التي تجذبك لعقلها أولا..

لم تقل (كاتيا) شيئا بعد ذلك، ألقت بنظرة آسرة إليّ ثم رحلت مع صديقتها المتكبرة التي أنعمت عليّ أخيرا بنظرة جافة، ومن ثم سارت محادثة صديقتها.. بالتأكيد عن كنه المغفل الذي كانت تجالسه، في حين أن هنالك واحد على الأقل من الشبان مالكي السيارات الرياضية المكشوفة يستحق الظفر بتلك الساعة التي أضاعتها برفقتي!

وهكذا رحلت (كاتيا) كحلم وردي جميل..

*****

كان شعوري عقب رحيلها كشعور المستيقظ من حلم قبل التفكر بكينونته، أوهم كان أم حقيقة؟

إنه حلم، فهو وهم إذن.. لكنه كان أقرب للحقيقة! لقد أظهرت تلك الساحرة بلمسة من عصاها خدوش وكدمات حياتي الخاوية، أشعرتني بالحزن وعدم الرضا أو التظاهر به..

كان لمذاق حديثها حلاوة السكر أو العسل، أو قطعة "جاتوه" بالشوكولاتة! والآن شعرت أن لها مذاق العلقم والسم معا.. قد زارتني في وحدتي ووسط تأملاتي التي لا تنتهي بصدد هذا العالم الذي أشعر أنه يضيق بي يوما بعد يوم، ورغم ذلك وجدت لنفسها وبكل أريحية مكانة رحبة في نفسي، وبثقة اصطنعته فخيما مهيبا..

ومن ثم رحلت!

كيف يتأتى لي الآن مزاولة حياتي المعتادة بعدما أرتني (كاتيا) شتى صنوف شقوقها وعيوبها؟ أتراني أفلح في المكابرة من جديد بالقول أنني سأواصل عيشة الإيقاع الرتيب مرة أخرى؟ ماذا لو فشلت؟ ماذا لو عاودني الشعور بحاجتي الماسة لها في حياتي؟

لسنوات وأنا أحيا بمفردي، لا أزور والدتي إلا حين يشتد شوقي لطعامها الشهي، أما أشقائي فلم أر أحدهم منذ فترة، ولا أعرف أحوالهم إلا عن طريق والدتي التي لا تكف عن الأسف لحالهم مع ظروف المعيشة، ولحالي الذي بلا أنثى، بالطبع وهي عاكفة على تجهيز ألذ أصناف المأكولات المفضلة لدي، فهي على يقين من أن طعام المعلبات والمطاعم التي خالط عرق عمالها طعامها يكاد يسقمني لدرجة الموت البطيء، فتعد لي "زوادة " أحملها معي إلى حيث مسكن الأرواح الضائعة الذي أقطنه..

كنت أظن دائما أن والدتي ستظل الأنثى الأولى والأخيرة في حياتي، لكن (كاتيا) ظهرت لتدمر الكثير بجاذبيتها، بل وبفستانها الأخضر كمرعى نضر في سفح واد عميق!

حجبتُ بصري المنهك بكفي إثر تأمل الأجساد من حولي، لأن معالمها المبهمة بصورة مستفزة أعادت الدوار لرأسي، وطفقت أستعيد ملامح وجهها ومعالم قدها، ثم أخذت أتذكر أجمل ما قالته، فوجدت أن كل ما قالته كان الجمال بعينه..

ربما شككت بأن الحورية وهم، لكن كلماتها المبسطة رسخت من وجودها في مملكة الأوهام..

حتى "الكافيه" اللعين صار كجحر لإيواء مخلوقات تتظاهر بالسعادة وحب التجرع من دن الحياة المسكر كالخمرة الخبيثة، لم أشعر بهم وبالنفور منهم إلى تلك الدرجة لدى مجالستي صاحبة الرواية الوحيدة ذات العنوان المتحذلق، حتى رائحة عطرها داعبت أنفي مداعبة منقار الطائر الطنان لرحيق الزهور، رائحة مرهفة رقيقة، أنستني جل الروائح الخانقة للسجائر، والعطور الغالية التي شاهدها في قبضة فتى وسيم شبه عار، يسبل بجفنيه كغانية ناعسة في إعلان تلفزيوني داكن للإيحاء بالغموض الزائف، مما يغري الفتيات الفارغات بشرائه وتقديمه للفتية في عيد الحب، كأنما يتوقعن تحولهم لنسخ طبق الأصل من المخنث الذي يظهر في الإعلان السخيف.. وبصوت كأنه آهة لوعة أطلقت من فوق جسر التنهدات همست: ــ (كاتيا)، أنا مشتاق لك منذ الآن!

*****

عبر النافذة نظرت إلى حيث مواقف السيارات الفسيحة بعد تخلّي من ارتداء نظاراتي الطبية.. ما أكثر السيارات! أتراها أكثر من البشر؟ أستطيع فقط الحلم بقيادة واحدة رغم رخصة القيادة الراقدة في جيبي منذ أعوام، والمانع هو بقايا مبلغ الراتب لهذا الشهر الذي احتوته محفظتي، ولا يزال عليّ دفع فواتير الكهرباء والماء أيضا..

لمحت سيارة رياضية سوداء اللون تخطف الأبصار والموقف الوحيد الفارغ بمعجزة إلهية.. فكرت في حشود الناس داخل المراكز التجارية، والذين ينافسون بأعدادهم أعداد أولئك الذين يسافرون لأداء

فريضة الحج .. هل يبيتون في المحلات؟ ألا يتزحزحون من مواقف السيارات؟ من السيارة السوداء وثب شاب يرتدي البهرجة بأم عينها، لقد اعتدت مشاهدة أسوأ الأذواق في انتقاء الثياب، لكن تلك التي ارتداها ذلك الشاب جذبت انتباهي كونها الأسوأ على الإطلاق!

كان الصعلوك وسيما إلى حد ما، ربما لم يكن نظرا لنحوله، إلا أن تصميما في بصره جعله بادي الصلابة والتصلب، لذا استغربت ارتدائه مثل تلك الأسمال البراقة الممتلئة رسوما تشكيلية معقدة..

مرر كفه على شعره الخشن أسود اللون بحركة سريعة لا فائدة ترجى منها، فهو بحاجة لمصفف شعر محترف كي يظهر أن الصبار النابت على رأسه معتنى به.. ثم قام بصنع أمر غريب بعض الشيء، فقد تجاهل حراس الأمن والشبان البلهاء والفتيات المائعات والعوائل المحافظة، عندما قام بجذب سحاب بنطاله لأسفل، وطفق يتبول على الرصيف وكأن الأخ داخل حمام!

الفصل الثاني

ثمة اسمٌ له رنين بعبعي في ذكرياتي الجميلة، عندما كنت مجرد صبي في المرحلة الإعدادية.. لم يكن (غسق الغبرا) ممن يعقدون الصفقات مع الشيطان كما حاول (موفيستو) مع د. (فاوست)، لكنه اضطر لذلك كي يدرأ أذى المتحرشين عني وعنه..

كان صعلوكا رائعا يعرف ماذا يصنع وكيف يصنعه.. مجلة خلاعية هنا، فيلم إباحي هناك، وهكذا يضمن وضعهم جميعا في جيبه، وبذلك لا يحاولون التحرش به لدى دخوله دورة المياه!

كانت المدارس كمستشفيات للأمراض الجنسية، بسببها خرج طلبة كثر وقد صاروا من المنحرفين ذوي الشذوذ.. البعض الآخر تعلم التدخين، والقليل نجح في الظفر بشيء من العلم يعينه على إتمام المرحلة الثانوية، وقد كان موضعي من بين هؤلاء، وبالكاد وجد (غسق) لنفسه موطئ قدم بيننا كذلك..

أحيانا كان يتظاهر بالخساسة، تارة تجده منافقا وتارة أخرى لا يخشى في قول الحق لومة لائم، مستنفر دوما ولا يحب الأوضاع الساكنة، وحين يكون برفقة شلة ما ــ أية شلة ــ وتتخذ قرار الفرار من المدرسة والتسكع في الشوارع، تراه من كبار المؤيدين للقرار، وأول من يثب من فوق السور!

لا يوجد جدار خلفي للمدرسة، أو لمطعم قريب من المدرسة، أو لمنزل مهجور قريب من المطعم لا يحمل توقيعه مع شعارات مرسومة.. جمجمة "بافوميت" المخيفة بقرون التيس إياها، صليب "سوفاستيكا" النازي، نجمة داوود..

كان يمتلك نزعة شبه مثقفة تذكرك بالمخرجين المشاغبين في "هوليوود"، يعلم الكثير عما تهمه معرفته فحسب، ولا يأخذ من علم المدارس إلا القصص المثيرة، أو العلوم التي يريد الاستفادة منها في مغامراته..

لم أنجح في تقييمه قط، فهو صعلوك مسكين وغد شجاع أحمق ماكر! يحب الحديث عن أهمية الصلاة ولا يصلي، ويهوى أحاديث النساء ولا يقربهن مع أنه قادر على ذلك، فهو يعلم بمقرات تلك الأوكار، لكنه يكتفي بالحديث لحسن الحظ..

إلا أن ذلك لم يمنعه من التمادي في الوقاحة.. أحيانا يخرج رأسه من نافذة سيارة يقودها متهور تعرف عليه حديثا فقط لأن معه سيارة، فينهال بالشتائم المشينة على الفتيات اللواتي يسرن برفقة أمهاتهن في السوق.. والطريف أن فتى قد حاول أن يحذو حذوه ذات مرة برفقته داخل سيارة أخرى، فتجهم وجه (غسق) قبل أن يقول بصوت جاف له:

ــ عيبٌ عليك!

عشق التهور وبشدة، فأحب قيادة السيارات والدراجات النارية، ولأجل ذلك رافق الشبان ممن يمتلكون مثل تلك المركبات فقط لكي

يسمحوا له بقيادتها، وحين يتسبب بتدميرها في حوادث من تلك التي يخصصون لها صورا في الجرائد حيث تتحول السيارة لما يشابه الشرنقة، يتخلى عنهم مباشرا البحث عن آخرين ممن يقودون مركبات سليمة!

وحينما يشاهد فيلما للمرحوم (بروس لي) يقسم بأن يصير مثله، ولتلك الغاية أجهد نفسه بتمارين قاسية كفَّ عنها عقب أسبوع بالضبط، لأن جذوة حماسته قد خبت بغتة..

أتاني في يوم ليقول لي:

ــ الأعصاب، بها يكمن السر!

ــ والمعنى؟

ــ إنهم يدسون قبضاتهم في الرمل الملتهب الذي يعد به الفول السوداني في الطرقات، وبذلك تحرق الأعصاب، فلا يشعرون بألم عندما يحطمون بقبضاتهم الخشب والقرميد!

ــ وما الذي نويت فعله؟

وهكذا تغيب عن المدرسة لأيام، عاد بعدها بقبضتين من الشاش المبقع بصفرة القيح المزدانة بالدماء! أخبرنا أنه صبَّ بعض البنزين على قبضتيه، ثم أشعل فيهما النار!

أحمق مثير للغثيان والإعجاب بآن واحد..

في يوم من ذات الأيام قدم صوبي حاملا معه مغامرة جديدة..

ــ "مساكن العمال القديمة.."

ــ "والمعنى؟"

ـ "فقط قابلني هناك عقب صلاة العصر.."

كانت منطقة خرائب خطرة لأن حفرة من البترول قابعة بالقرب منها، وقد لمحنا ثورا نافقا غارقا داخل السائل الأسود اللزج..

ـ "ما الذي نفعله هنا؟"

ـ "سيصير هذا المكان الرائع مقرنا.."

ـ "السري؟"

ـ "أجل! أنظر من حولك، ستجد العديد من الحجرات المتصلة ببعضها دون أبواب، سنحول المكان لمتاهة حقيقية، لذا يتوجب علينا صنع تجاويف تتسع لمرور شخص بالغ عبر تلك الجدران.."

كانت فكرة ذات مخاطرة ضئيلة، لذا وافقت، وبهمة غير عادية نجحنا بصنع تلك الفتحات في الجدران القديمة، أحيانا كنا نحضر طعاما محاكين عمال البناء، فنحفر حتى نجهد، ومن ثم نباشر بالتهام ما جلبناه بنهم، بعدها نعاود الحفر حتى أذان المغرب، وعندها نتوقف لنعود إلى ديارنا وقد تحولنا لكتل غبراء تسير متهالكة في الشارع بفضل المجهود المبذول لا لشيء في الواقع، لكنه بصراحة ممتع!

كنا نفضله على رحلات التخييم أو الذهاب إلى النوادي للسباحة أو لممارسة أي رياضة أخرى، فقد انتابنا شعور طفولي بأن النوادي للفتية المدللين فقط، ونحن أحببنا الظهور كعصابة لا تعرف المزاح! كما أن التعساء الذين يذهبون إلى مثل تلك النوادي مع ذويهم كانوا الأكثر عرضة للتحرشات في المدرسة، حيث يسمع فلان بارتياد الفتى للنوادي عن طريق علان، فيسري الخبر كالنار في الهشيم بين

الأوباش، وعندئذ يحاولون استمالته، أو إغرائه بالمال، أحيانا يحاولون اغتصابه، وقد وقعت حوادث كهذه عدة مرات فصل إثرها بضعة طلبة، حيث ضبطهم الفراش متلبسين في دورة المياه التي كانت مقرهم الدائم.. لم يعلم واحد من التعساء الذين تعرضوا التحرش كيفية التعامل مع الأوباش، أما عنا نحن فقد تمكنا من أو بعضهم بكثير من العسر في الواقع..

كان الرسم هوايتي، وفي تلك الأيام اعتبرت موهبة كتلك معجزة مثل عصا (موسى) بالنسبة إليهم..

بعت العديد من الصور التي رسمتها لشخصيات كارتونية، وبالدراهم المعدودة التي أحصل عليها اشتريت طعامي من المقصف رغم شطائر الزعتر التي تحضرها أمي لأجلي، لأن الأوباش كانوا يشهقون ويتلمظون كلما أخرجت تلك الشطائر الشهية من حقيبتي، ورغم أن أمي زادت من كميتها باجتهادها الشخصي إلا أني لم أكن أظفر بما أسد به رمقي، فكانت تلك الصفقة الأولى غير العادلة معهم.. أما عن الثانية فقد كانت الرسم كما ذكرت مسبقا..

في مرة من المرات جاءني (غسق) بعرض لا بأس به..

ـ "هنالك تحد لك.. إنه فتى من الشعبة (ج) يقول بأنك لو أتقنت رسم صورة لفتاة مجردة من ثيابها بأفضل مما يرسمها هو، فسوف يمنحك جهاز "سيجا" يملكه!"

ـ "هل أنت جاد؟"

وشهقت وأنا أتخيل بين جدران حجرتي التي كنت أشارك

شقيقي الأكبر بها جهاز "سيجا"، ومن دون دفع ثمنه المرتفع، لـذلك قبلت التحدي على الفور..

علمني أستاذي في الفنية ـ وهو سوري ممتلئ وأعرج ـ بأن التظليل هو الذي يمنح اللوحة الجمال والمصداقية..

كنت أحب ذلك الأستاذ وأحترمه وأقدر فنه كثيرا، وحين لمـح رسوماتي أول مرة لم يصدق أنه قد وجد أخيرا طالبا يعرف كيفيـة الرسم ـ لكن موهبته بحاجة للصقل ـ وسط أفواج الطلبـة البـدو والأوباش وممن خلقوا لممارسة الرياضة فحسب، هكذا تبناني الرجل فنيا، وبفضله تحسن رسمي إلى حد بعيد..

أهم ما علمني إياه أستاذي في الفنية عن الرسم كان التظليـل، وبفضله تمكنت من هزيمة المتحدي، إذ خرجت الـصورة كاللوحـة الفنية، تبدت الغبطة على وجه (غسق) حينما استحسن الجميع رسمي، لكن الفتى المتحدي لم يكن سعيدا، ويلوح لـي أنـه نـسى روحـه الرياضية في عقر دارهم عندما أمرني بغلظة بالخروج من الفـصل حالا..

ـ "وجهاز السيجا؟"

ـ "سأجلبه فقط كي أكسره على رأسك!"

وقذف الورقة التي "كرمشها" بقبضته على وجهي، فانقضضت عليه كحيوان مفترس لأدس قبضتي في خلقته..

تحطم أنفه وكذلك أحد أسناني بلكمة منه، وتمزقت ثيابنا معـا من فرط التجاذب كأنما نتراقص بصخب، ونلت ركلة غـادرة فـي

خاصرتي من أحد رفاقه، مما جعلني أستشيط غضبا وأقذف بالـدرج على رأسه، ونال (غسق) عدة ضربات موجعة بممسحة السبورة على رأسه وهو عاكف على قضم ساق طالب آخر!

كانت النتيجة أن خرجنا من ذلك الفصل منتصرين مدحورين.. انتصرنا في التحدي وهزمنا في الشجار، فـالكثرة تهـزم الـشجاعة كالأغلبية الساحقة من شجارات المدارس..

أحيانا أفتقد تلك الأيام رغم كثرة المشاجرات والتحرشات..

واليوم أجد (غسق) بعد كل تلك السنين ليذكرني بالأيام الخوالي والذكريات وهو عاكف على تلبية نداء الطبيعة، وسط صراخ حراس الأمن، وجزع العوائل، وسخرية الشبان واستنكار فتياتهم!

*****

كنت قد غادرت "الكافيه" متجها صوبه، وحين صـار الفـارق بيننا مترا هتفت باسما:

ـ من قلة دورات مياه في البلد؟

التفت إلي، ومن ثم تبسم في سخرية..

أنهى سريالية البول المرسومة على الإسمنت الجاف، وتنـاول من سيارته قنينة "سفن أب" ملأها بالماء، فاغتـسل منهـا وغـسل الأرض معه قائلا لي دون أن ينظر نحوي:

ـ والله زمان!

وجفف كفيه في سترته، ثم ارتمى في أحضاني صـارخا فـي رجال الأمن الثلاثة المزمجرين:

ــ كفى أنت وهو، لم نبلل أرضية مسجد لا سمح الله!

لك وحشة والله يا شريكي القديم في المصائب!

ــ غدرت بي واختفيت دون سؤال أو رقم تتركه كي أتصل بك

ــ أشغال وأسفار، كنت في لندن، أحاول اكتساب مهارة التحدث بالإنجليزية..

ــ كل تلك السنين؟

ــ بل لثلاثة أشهر عدت بعدها إلى هنا، ضجرت من المسألة برمتها.. إن البريطانيات عاهرات بالسليقة، ومع هذا يثرن الاشمئزاز أكثر من الشهوة، ما علينا، بعد ذلك سافرت إلى تركيا..

ــ كل تلك السنين؟

ــ لشهر واحد، أحببت تركيا، جميلة والله! والتركيات ملكات جمال.. أي والله ملكات جمال!

قلت شاعرا بأن صبري قد عيل:

ــ (غسق)، أين كنت يا رجل؟

ــ هنا.. في البلاد!

ــ يا للإخلاص والوفاء لذكريات الماضي!

تبسم بمرح، ثم سألني وهو يضع كفه اليمنى عند خاصرته:

ــ أداخل أنت أم خارج؟

ــ خارج..

ــ دعني أوصلك إذن..

واتخذت مقعدي بجواره في السيارة الرائعة، ولكن من انطلاقته

المجنونة بها فكرت أنه لا يجدها رائعة إلى ذلك الحد، فقلت له:

ــ يبدو وأن السيارة لا تروقك.. تعاملها بفظاظة..

ــ لن أغير أسلوبي في القيادة لأجل سيارة جميلة، حسبتك تعرفني!

هذا هو (غسق) الذي أعرفه حقا! ولما اطمأنيت إلى أنه لم يتغير قلت له:

ــ صارت أمورك فوق الريح على ما يبدو..

ــ لقد أنصفني والدي في شيء أخيرا.. في وصيته!

ــ مات والدك؟!

ــ وترك لي نصف ثروته، والنصف الآخر لزوجته الطماعة التي يخرسها فحسب..

ــ رحمه الله، تقبل عزائي وإن جاء متأخرا..

بدا مستهينا بالأمر عندما أرجح برأسه، فواصلت سؤاله:

ــ وأين تقطن الآن؟ في الفيلا؟

ــ تركتها لزوجة والدي الجشعة، أتمنى أن يسقط السقف على رأسها!

ثم نظر إليّ مطولا وهو يسألني بشغف:

ــ أتود رؤية مسكني؟

ــ ولم لا؟

قلتها مسرعا كي يعاود تأمل الطريق، فلو غفل عنه لثوان أخرى وهو يقود بتلك السرعة المرعبة لما تقابلنا بعد ذلك البتة!

سألني:

ـ ماذا تعمل؟ أرجو أن يكون عملا يليق بك كموهوب..

ـ العمل كمندوب يسعى لإنهاء معاملات شركته لهو عمل كفيل بإثارة جنون من يفكرون على شاكلتي! مجرد الوقوف وسط طوابير التعاسة البشرية الممتدة من عند شباك استلام المعاملات حتى بوابة مصلحة الجوازات كفيل بقلب الرأس أو تدويره مرتين، أحيانا أشعر أن عمل المندوب قائم على دفع الرسوم طوال الوقت، ومن ثم استلام بطاقات بلاستيكية بنفسجية أو زرقاء اللون توضع في جهاز يشبه الحاسبة يصدر أصواتا مزعجة، وعقب إخراج البطاقة من فم الجهاز تصير جاهزة للاستقرار داخل سلة المهملات.. سمعته يقول وهو يسابق سيارة رياضية أخرى يقودها رقيع حانق:

ـ رسوم.. رسوم.. رسوم!

وتكثر البطاقات، ومن ثم تكثر الأوراق لتلقى في النهاية داخل ملف مغبر لا تظهر أهميته إلا عقب أعوام طوال، عندما يكون هنالك محاسب شاب قد تخلص منه، وعندئذ يطالبون به، فإن لم يتمكن من إيجاده ألقوا بالبائس في الشارع لقلة الكفاءة المزعومة لديه!

ـ بالضبط! بالضبط!

ثم قال مغيرا دفة الموضوع بطريقة مباغتة:

ـ ولكن لا تنكر الذكرى المثيرة لتلك الأيام التي خضنا مغامراتها معا.. كانت أياما مجيدة بالنسبة لي، فقد كنا خطرين!

ثم ناولني سيجارة، ودسَّ أخرى في طرف فمه، وأخرج قداحة

أشعل بها طرف سيجارته..

سألته وأنا أتناول القداحة منه:

ـ لم تتزوج بعد؟

ـ خطبت مرة ثم ألغيت الموضوع برمته، كانت فتاة تافهة ومملة، لا تكف عن ارتياد صالونات التجميل للتزين والمقاهي الأرشة.. ماذا عنك؟

ـ تزوجت وعندي ثلاثة أطفال!

ـ تبارك الله! أحقا ما تقول؟

ـ بالمشمش!

وأوقف سيارته أخيرا ليثب منها بحماسة، في حين ترجلت ببطء سائلا إياه مستغربا وأنا أنظر إلى فيلا لم ينته بناؤها بعد:

ـ أين تقطن؟

ـ هنا..

ـ هنا أين؟ إنها مجرد فيلا لا تزال قيد البناء!

ـ أصبت، هذه هي فيلتي!

ـ يا صاحبي، قصدت المكان الذي تنام فيه و..

ـ ألم تصل الفكرة بعد؟ هنا آكل وأشرب وأنام.. هنا أقطن!

ـ أتمزح؟ بلا طلاء أو توصيلات كهرباء؟

لا زال إذن يحمل بضع بذرات من الجنون الذي كاد يودي بنا في الماضي! حين عبرنا المدخل ولمحت تلك اللافتة المعلقة تقول: "*مرحبا بكم في أوتوقراطيا*"!

تمعنت في وجه (غسق) قبيل سؤاله بريبة:

ـ أتعرف معنى "أوتوقراطيا" هذه أم أنها مجرد حذلقة؟

ـ حذلقة!

وضحك بافتعال مبينا أنها مزحة، ثم أجاب:

ـ الكلمة الأصلية هي "أوتوقراطية" بالفعل، كالديموقراطية والبيروقراطية، جعلت الأمر كما لو كانت دويلة صغيرة أنا حاكمها، فالأوتوقراطية حكومة يقوم على رأسها شخص أو جماعة أو حزب، لا تتقيد بقانون أو دستور، والأوتوقراطي يحكم حكما مطلقا ويقرر وحدة السياسة المتبعة، دون مساهمات من الجماعة!

ـ ولماذا سميت مسكنك الغريب بأوتوقراطيا؟ أنت لا تمارس ألاعيب سياسية هنا أليس كذلك؟ لا أظنك تحاول عمل انقلاب!

ضحك من صميم فؤاده، ثم أجابني مكفكفا دموع ضحكه:

ـ بحق الله إنها لنكتة جيدة! لا تخف، هي فقط.. لنقل تسلية بريئة لا تؤذي أحدا هذه المرة!

ـ أرجو هذا..

ـ انتظر هنا دقيقة ريثما أقوم بإشعال الشموع..

ـ إذن فهي مسألة بخل في النهاية! يجب أن تخجل من نفسك!

غاب في العتمة الرائعة بالداخل مقهقها، فتبسمت وأنا أطالع المكان من حولي بانتظاره.. لمحت شعلة صغيرة تحلق في الهواء بمفردها عقب ثوان، وسمعت صوته يقول:

ـ تفضل بالدخول..

دخلت بحذر ريثما يقوم هو بإشعال كافة الشموع المنتشرة في أرجاء المكان، فوجدت مزيدا من أفكاره الغريبة في انتظاري بالداخل.. لا توجد بقعة على جدار لم تخلو من عبارة أو جملة أو رسم، وبألوان مختلفة من طلاء لا يمكن إزالته.. كان الأمر جنونيا كشقق البوهيميين في فلورنسا أو مقاهي المثقفين في كوبا!

"الوصول إلى السلطة يجب أن ينحصر في الرجال الذين لا يحبونها."

ونظرت لغسق قائلا:

ـ (أفلاطون)..

ـ أحسنت!

ـ *"للأسد هيبة في موته ليست للكلب في حياته"* (ميخائيل نعيمة)

ـ نسيت كم كنت ـ ولا زلت ـ واسع الاطلاع حقا!

ـ لكنك لست كذلك! أم أنك صرت كذلك؟

ـ لم أقرأ في حياتي سوى كتاب واحد لكاتب أحسبه روسي الأصل.. عنوانه كان على ما أذكر: "الشياطين"!

ـ أنت قرأت لديستويفسكي؟!

ـ كانت رواية لا بأس بها!

وسار بخطى حثيثة باتجاه أحد الجدران، كان يتبين طريقه بفضل عشرات الشموع المثيرة للرهبة والتي قام بإشعالها..

قال متحسسا بأنامله الجدران:

ـ مذ أوجدت هذه الفيلا وأنا أتعرف العديد من الأشخاص رباء الأطوار، فحين أصحبهم إلى هنا ينبهرون بنمط معيشتي بشدة،

فأعرض عليهم تدوين أو رسم ما يحلو لهم للذكرى، فهم يستمتعون بفعل ذلك كثيرا.. كما أني استمتعت بمطالعة ما قاموا بتدوينه ورسمه، بل وحفظته أيضا عن ظهر قلب!

ابتسمت مندهشا مما قاله، ومحدقا في كل ما تم تدوينه على تلك الجدران، لابد وأنه يعرف مائة شخص على الأقل!

(حنظلة) يمسك سيفا نصله قلم حبر شفرة:

"ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة"

"لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا أمانة لمن لا عهد له"

"لولا نوائب الدهر لم يعرف الشجاع من الجبان

أعظم دواء للقلق الإيمان"

"عجبت للذي يقول للمضروب: لا تبك،

ولا يقول للضارب: لا تضرب!"

ورسوم كاريكاتورية عديدة لشخصيات شهيرة من مختلف الجنسيات، شعارات، رموز، أعلام، تواريخ..

سمعت صوتا، فاستدرت لأجد (غسق) يزيح بقدمه سطل طلا اتجاهي، كان قد وضعه عند جدار شبه خال من الرسوم والكتابات..

ـ "سأذهب لإعداد الشاي، وحين أعود أود رؤية ما ستزين ب جداري، لقد حجزت مساحة خاصة بك، وبقيت لأعوام أتساءل عمـ سترسمه عندما تأتي إلى هنا!"

ـ "لا أحسبني أرسم شيئا، فقد فقدت موهبتي.."

ـ "لابد وأنك تمزح!"

وغاب دون أن يزيد حرفا على ما قاله باسما باستهانة، فتأملت الجدار على أضواء الشموع الموقدة، ثم تناولت الفرشاة وغمست طرفها في مادة الطلاء سوداء اللون.. ولما عاد (غسق) حاملا صينية عليها كوبين من الشاي، جمد في مكانه وقرأ بصوت مسموع:

"الحاجة تمزقني لكرامة..

أرفع لأجلها رأسي عاليا..

حتى السحب الداكنة والنجوم المتلألئة..

بعيدا عن حضيض الخزي والعار..

الحاجة تمزقني لضمير آخر..

مثقل بالهموم والآلام.. كضميري..

لجواز سفر يحملني إلى السماء بلا أجنحة.. بين العصافير!"

تساءل بخيبة أمل:

ـ وبتّ تكتب الشعر أيضا؟

ـ ألم يعجبك؟

ـ جميل، لكنني طمعت بصورة من رسمك..

ـ لكي أكون صريحا معك فقد مرت سنوات عديدة لم أزاول خلالها الرسم بتاتا..

ـ تكتب الشعر عوضا عن الرسم؟

ـ أكتب الرواية في الواقع، وأحيانا للمسرح..

ـ كنت متأكدا من ممارستك موهبة ما هذه الأيام!

ووضع الصينية أرضا، فسرت نحوه قائلا بتهكم:

ـ ما حكاية الشموع؟

ـ أُفضّل الشاعرية على الواقعية الباردة!

ـ أيها النمس الماكر! هنالك فتيات في الموضوع!

ـ بعدد أسراب النحل، لسن كعارضات الأزياء الجميلات لكن برؤوس فارغة كالدمى، بل يجمعن ما بين الذكاء والجمال في آن واحد.. تساءلت بشك:

ـ هل ترتكبون إثما من نوع ما؟

ـ سامحك الله! علاقتنا ببعض قائمة على تبادل المعرفة والثقافة لا القبل والمعانقات!

ـ ترى ما الذي غيَّرك على هذا النحو يا (غسق الغبرا)؟

ـ للأحسن أم للأسوأ؟

ـ ليس بإمكاني الجزم بعد..

انحنى لالتقاط كوبي الشاي من على الصينية، وناولني أحدهما قائلا:

ـ نخب استعادة صداقتنا إذن..

ـ أكره الأنخاب، لسنا في حفل لشرب "الجعة"!

ثم أننا كنا وما زلنا أصدقاء، وأرجو أن نظل كذلك دائما..

وهنا سطعت من الخارج أضواء بهرت بصري، فوضع (غسق) كوبه أرضا قائلا على عجل:

ـ وصلوا أخيرا..

ـ من؟

ـ أهل "أوتوقراطيا" الأحبة!

الفصل الثالث

شاهدت من الفتحات التي من المفترض أن تكون نوافذ العديد من السيارات الرياضية الغالية!

كانت الفيلا في منطقة نائية لحسن الحظ، فقد أثارت محركات السيارات ضوضاء تصم الآذان قبل توقفها واحدة تلو الأخرى، البعض قدم على متن دراجات نارية، والقصد بأن جميع من أتوا بدوا مرفهين، ولربما كانوا ممن يعانون من سلطة الفراغ الكئيب عليهم..

تقدم عدد لم أتمكن من تبينه بسبب الظلام، ولحظة ولوجهم على أضواء الشموع عددت عشرة أشخاص، نصفهم شبان والنصف الآخر فتيات، كما لو كانوا أزواجا، وقد عانق الجميع (غسق) في شوق عجيب! ثم سلط كل واحد منهم نظره الفاتر أو المتفحص علي وهم يقومون بمصافحتي ببرودة..

قال لهم (غسق) واضعا راحة يده على كتفي:

ـ اليوم سيكون اجتماعنا مميزا يا رفاق..

تساءل شاب بلحية طويلة بعض الشيء متأملا إياي بشك:

ـ هل نعرف الأخ؟

ـ كاتب ورسام بارع، وصديق قديم وعزيز..

ثم لم يلبث أن تبسم مردفا وكفه معلقة بالهواء:

ــ سنبدأ اجتماعنا الآن!

قلت لنفسي: بإمكاني مسايرته ومن ثم الانسحاب في الوقت الذي أراه مناسبا..

قالت فتاة رقيقة تبالغ بوضع مساحيق التجميل على وجهها حتى تبدت كمهرج حزين:

ــ سأذهب لأعد لكم الشاي..

ــ هنالك قهوة أيضا في المطبخ، من يريدها؟

رفع جميع الحاضرين أياديهم، في حين اقتربت الفتاة مني متسائلة بخجل:

ــ ماذا عنك أنت؟

ــ لا أريد شرب شيء.. شكرا!

بدت الفتاة مرتبكة لأقصى حد لدى سماعها ردي، فقال (غسق) وهو يمس بأنامله كتف الفتاة:

ــ هلم! لا تسبب الإحباط لعزيزتنا (سيرين)!

ــ لا بأس بالقهوة إذن..

هرعت الفتاة إلى المطبخ منبسطة الأسارير، فقال لي (غسق):

ــ (سيرين) ابنة رجل أعمال شهير، وهي آخر من انضم لنا في الواقع..

ــ ومتى كان ذلك؟

ــ قبل أسبوع..

ــ بتلك السرعة؟

ــ أحيانا تحضر الفتاة صديقتها والفتى صديقه، المهم أن يكون مؤهلا لكي يصبح مواطنا له حقوق وعليه واجبات في "أوتوقراطيا"!

جنون (نيتشة) الذي أودى به! أتراها رائحة ماسونية تلك التي أشتمها أم فلسفة تبشر ببلاء من نوع جديد؟ شعرت أن الموضوع ليس فيه خير لأحد، وبأن (غسق) يبطن عكس ما يظهر، لكنني سأجاريه كي أرى بعد..

كان هنالك كرسيان من الخشب الممتاز، أجلسني (غسق) على واحد وجلس هو على الآخر، في حين انتشر الباقون أرضا أو على حواف فتحات النوافذ كيفما اتفق، ومنح بعضهم ظهره للجدار وقوفا..

قال أحدهم ــ وكان نحيلا يرتدي ثيابا أنيقة لكنها فضفاضة بعض الشيء ــ رافعا يده بارتباك:

ــ أشعر اليوم برغبة عارمة في الرسم، رغبة جنونية..

ــ لك ما ترغب يا (ناجي)..

تبدت الحماسة في ملامحه، فحمل سطل الدهان وفرشاة، واتجه لزاوية الشخصيات الكاريكاتورية المرسومة ــ قام هو برسمها كما يبدو ــ وابتدأ العمل..

قال (غسق) مسترخيا على مقعده كعجوز ثمل:

ــ اليوم عصرا شاهدت أمرا داعيا للاستغراب، كنت أقود سيارتي حين لمحت قطا يقف على الرصيف، لم أهتم كثيرا لدى إيقافي السيارة كي أذهب إلى البقالة لشراء علبة سجائر، وحينما عدت

وجدت القط يقوم بفعل أغرب شيء، رأيته يتقدم إلى الشارع ويرقد واضعا رأسه في طريق عجلات سيارة مسرعة!

سمعنا صوت زجاج يتحطم من الحجرة التي من المفترض أن تكون المطبخ، وخرجت إلينا (سيرين) ويدها على صدرها شبه الضامر قائلة بتألم:

ــ أتعني أن القط كان ينتحر؟!

ــ أجل بالضبط..

ارتجف ثغرها ومن ثم كلماتها لما قالت:

ــ المسكين! ولماذا يصنع بنفسه ذلك؟

ــ هذا هو سؤالي لكم..

عادت (سيرين) إلى المطبخ مرتجفة الأوصال، في حين قال شاب وسيم مفتول العضلات بسذاجة مفرطة:

ــ أتراها إشارة من نوع ما أو تحذير؟ لربما دنت القيامة أو نهاية العالم أو..

سارعت بالقول لأن كلامه الفواح بعبق التساؤلات الدينية التي في علم الغيب لم يعجبني:

ــ هي مصادفة فحسب..

ــ هل تمزح؟

ــ كلا، أظنه هو الذي يمزح!

وأشرت إلى (غسق) الذي ردّ جادا:

ــ هل أقسم لك على المصحف الشريف أنني رأيت ما

رأيت؟ وعلى العموم أنا معك.. لعلها مصادفة!

ولكن على افتراض بأن ذلك وقع فعلا فلماذا انتحر القط؟

أجابت ذات الشعر القصير هذه المرة وبثقة:

ــ ربما انتحر لأن هرة رفضت حبه!

انفجرت ضاحكا لدرجة أني لم أسمعها في البداية حين صاحت غضبى:

ــ لا أظنني قلت ما يُضحك..

ــ ماذا؟

أعادت ما قالته محتدة، فقلت لها باسما وأنا أشعل سيجارة:

ــ أظنكِ تبالغين!

ارتفع صوت (سيرين) من المطبخ قائلة:

ــ ألا تؤمن بالحب والرومانسية؟

ــ ربما، ولكن ليس بتلك الدرجة بين القطط! لا أظنها قذفت الدبلة في وجهه فذهب لينتحر..

أتظنين دبلته مصنوعة من الحلقة التي نجذبها لفتح علبة السردين؟ ردّت الفتاة ذات الشعر القصير واجمة:

ــ لست مضحكا..

توقف المدعو (ناجي) عن عمله ملتفتا إلينا، فقال:

ــ أظنه انتحر بسبب الفراغ!

كان ذلك أسخف من قول الفتاة، فرددت عليه بحدة والدخان خارج من منخريّ بعنف:

ـ إنه مجرد حيوان ميزنا الله عنه بالعقل والنطق..

ـ أتعني أنه لا يمتلك مشاعر وأحاسيس؟

ـ أعني أن مشاعره مختلفة كليا عن مشاعر البشر، يحب أطفاله والطعام، لكنه ليس بكاذب أو صادق أو لئيم أو منافق، لا أظنه يطبق قواعد "الإتيكيت" قبيل التهام فأر! هو كذلك حيوان يتشبث بغريزة الحياة أكثر من البشر، لذا أرفض تصديق موضوع انتحار القط فهو مستحيل!

تكلم (غسق) فقال:

ـ حسن، قد يكون انتحر بسبب الحب أو الفقر أو الملل أو لصعوبة الحياة لا يهم، المهم بأن القطط لا تنتحر حقا يا رفاق! نحن الذين جعلناها تفعل! عقولكم صورت لكم أن حيوانا بإمكانه إنهاء حياته بنفسه كما يصنع بعض الحمقى من البشر!

التفت إليه قائلا:

ـ أتعنى بأنك اختلقت هذه الحكاية؟

أطلق ضحكة أثارت استغراب الجميع، فقلت له باستياء:

ـ أظنك ذكرت شيئا عن القسم على المصحف!

ـ وهل فعلت؟

خرجت (سيرين) وهي تقول باسمة:

ـ اسخروا مني كيفما شئتم، لكنني سعيدة لأن القط لم ينتحر!

بين يديها صينية اصطفت الأكواب والفناجين على سطحها، وشرعت بتقديم المشروبات الساخنة برشاقة ولباقة نادلات

الفنادق الفخمة:

ـ "تفضل!"

كانت الآن تقف أمامي مقدمة لي قدحا كبيرا مزخرفا يختلف عن جميع الفناجين المتشابهة والأكواب المتماثلة، فتساءلت في سري عن كنه الأوهام التي عبأ بها (غسق) رأس الفتاة عني..

ـ "شكرا.."

حملت القدح بحذر لأنها ملأته عن آخره بسائل داكن رائحته كالدخان الخارج من عوادم السيارات، والطريف أنها طفقت تتأملني منتظرة سماع عبارات المديح والثناء على جودة ما قامت بتحضيره..

ـ "ممتازة، سلمت يداك!"

ومجاهدا كي لا أتقيأ ابتلعت السائل البترولي مبتسما، والغريب أن الجميع بدا مستمتعا بما يشربه، فتساءلت بداخلي عما إذا كانوا يسايرونها فحسب، أم أن ارتباكها جعلها لا توفق في صنع مشروبي..

قال (غسق) في حبور مرتشفا قهوته:

ـ إنها ممتازة اليوم أكثر من أي يوم!

عاودت الحمرة الطاغية افتراس وجه الفتاة، في حين رفع الشاب صاحب اللحية الكثة والشارب الحليق يده قائلا بخجل كأن كلامه وصمة عار:

ـ أريد الاستماع لشوبان، فهل بإمكاني أن..

ـ اخدم نفسك، أنت تعلم مكان "الستيريو" أليس كذلك؟

أسرع الفتى يصعد درجات السلالم المؤدية لفوق، في حين

توقف المدعو (ناجي) عن الرسم، والتفت لغسق متسائلا:

ــ هل صاحبك هذا رسام بارع حقا؟

فوجئ الجميع ــ وعلى رأسهم أنا ــ بغسق يهب واقفا، ليركل كرسيه للخلف بعنف دفع بعض الفتيات إلى إطلاق شهقات ذعر متفاجئة، واقترب من (ناجي) قائلا بلهجة باردة :

ــ سيفض الآن اجتماعنا لهذه الليلة، فأنا أرغب بمجالسة صديقي القديم لبعض الوقت.. أراكم غدا!

في تلك اللحظة تصاعدت في الأجواء ألحان على البيانو من مقطوعة "إمبرومبتو" لشوبان، ومعها هبط الشاب صاحب اللحية درجات السلالم الحجرية ــ بلا درابزين طبعا ــ والنشوة بادية عليه، ثم لم تلبث أن انسحبت عن وجهه حين لاحظ بدء زملائه بالانسحاب باكرا بوجوه ملؤها الحزن والإحباط ..

ــ "ماذا حدث؟ ألا تحبون (شوبان)؟"

قال له الوسيم القوي بحزن:

ــ لقد فضَّ الاجتماع لهذا اليوم..

تبدى الذهول على الفتى، من ثم الحزن العميق، فسار ببطء ليخرج معهم.. وعقب دقائق معدودات كانت كل المركبات مختفية من المنطقة بأسرها كأن لم توجد أصلا..

كانت نظرات (سيرين) المهمومة نحوي قبيل رحيلها معهم عالقة في ذهني، عندما التفت إلى (غسق) فوجدته يتبسم كطفل شقي قائلا وقد تجاهل نظراتي المصوبة نحوه:

ــ ما رأيك بهم؟

ــ تعساء حمقى، يذكرونني بتلامذة (فرويد) الذين ذهبوا إلى معرض الفن التشكيلي، فحولوا كل عمل قبيح إلى ملحمة فنية تخوض في صراعات النفس البشرية.. الخ من ذلك الهراء! قبل اكتشافهم أن الذي رسم جميع تلك اللوحات التي قاموا بتحليلها ما هو إلا قرد شمبانزي! حتى الفتيات اللواتي أخبرتني أنهن يجمعن ما بين الذكاء والجمال، يبدو أنهن اكتفين بالجمال فقط!

ــ تصور وجود الملايين منهم في عالمنا!

ــ ماذا عنك أنت؟ منذ متى كنت فيلسوفا ولك أتباع كأولئك الشباب؟ أتحاول خداعهم؟

ــ أخبرني عما كرهته في الاجتماع؟

ــ شعرت أنك تسخر منهم..

ــ هم الذين سخروا من أنفسهم، لقد عرضت أمامك فقط اختبارا مبسطا يستعرض قدرات عقولهم على التفكير المنطقي، فكان ذلك أكثر من كاف كي تدرك مدى محدوديتها! لاحظ بأنني لا أعرض عليهم المخدرات أو أي صنف حرام مع أنك لاحظت كم ينقادون بسهولة.. حتى أنه بإمكاني إقناعهم بعبادة الشيطان أو عبادتي!

ــ والعياذ بالله! ماهذا الذي تهرف به؟!

ــ لكنني أحاول مساعدتهم فحسب، إن (سيرين) مدللة في منزلها ــ بالأحرى قصرها ــ ومأساتها أن والدها لا يدعها تمس شيئا بقصد الترتيب أو التنظيف، فهنالك حشد هائل من الخدم والحشم لأي

شيء وكل شيء، ذات مرة قامت بإعداد كوب من الشاي أدخلته بنفسها على أبيها في حجرة مكتبه، فاشتعل غضب الرجل خاصة وأن بعض الضيوف المهمين من رجال الأعمال الكبار كانوا عنده، لابد وأنهم قد تساءلوا عن كنه الأب الذي يعامل ابنته معاملة الخدم — أو أن ذلك ما تصوره — فقام بوضع اللوم كله على الخادمة الطيبة المسئولة عن تقديم الشاي للضيوف، وطردها رغم أنها لم تكن تعلم شيئا عن صنيعة (سيرين) المسكينة، والتي شعرت بذنب هائل اتجاهها.. وابتسم (غسق) وهو يرتشف رشفة سريعة من شايه الذي برد، بغية غسل فمه من آثار القهوة رديئة الصنع وهو يقول:

— إن الفتاة تحضر إلى هنا لتصنع المشروبات الساخنة للجميع.

— والتي لا تجيد صنعها..

— قريبا تتقن الصنعة، المهم أن تكون مستمتعة بما تصنعه، ونحن جميعا نسايرها هنا لو أنك لاحظت، فهل هذا عمل قبيح؟

إن (ناجي) يعشق الرسم، والده صاحب شركة استيراد وتصدير كبرى، ويريد لابنه أن يدير الشركة من بعده، لكن الفتى يريد دراسة الفن لأنه يملك الموهبة، إنه يأتي إلى هنا كي يتنفس.. أما (وضاح) فوالده مالك لكبرى شركات المعدات الزراعية، رجل متشدد لدرجة التعصب يمقت الموسيقى بأنواعها، ويمنع ولده من سماعها، والفتى يعشق الموسيقى الكلاسيكية، لذلك يأتي إلى هنا لسماع.. لحظة كي أطفئ هذا الصخب! وأسرع بخفة لفوق، وبعدما غاب لبرهة عن ناظري سمعت الألحان تتوقف بغتة..

— "هكذا أفضل.."

بلغني صوته قبل ظهوره مجددا، فقلت له وهو يهبط درجات السلم:

— إذا كان ما تفعله حقيقي فلا ضير منه رغم كرهي تدخلك في حياة أولئك الشباب..

تباطأت سرعته بالنزول حتى توقف، وبفتور تساءل:

— لا زلت تظنني أعبث فحسب؟

— ليس هذا قصدي، لكنك لست مسئولا عنهم..

— إنهم أصدقائي، وأنا ارغب بمساعدتهم..

— لقد صرفتهم كالعبيد والجواري، تلك ليست صداقة في نظري

— أنت تقلق كثيرا، لكنك ستقتنع في النهاية.. أعدك بذلك!

— لا يهمني الاقتناع، المهم أن تقوم بما تقوم به بعيدا عني فقد سئمت المتاعب.. وعاودت تأمل المكان قائلا:

— سأتظاهر بأني استمتعت الليلة، والآن علي العودة لعالمي حيث يرتع الركب الكئيب!

— ألا تمكث عندي؟ غدا جمعة ولا أظنك تعمل فيه أيضا..

— أريد النوم..

— دعني أوصلك على الأقل..

— بالتأكيد ستفعل، فأنت من أحضرني إلى هنا..

وهكذا عاودت الجلوس إلى جواره من جديد داخل سيارته التي اندفعت مرة أخرى بسرعة متهورة .. كاد الرعب أن يلجمني كالمشلول، في حين بدا (غسق) مسترخيا وكأنه يمسك بقصبة صنارة

لصيد السمك، لا بمقود سيارة!

قلت له محاولا التماسك:

ــ هلا هدأت؟ أشعر أننا على متن طوربيد..

ضحك بأعلى صوته صائحا:

ــ أين جرأتك القديمة حين كنت تطالبني بزيادة السرعة؟

ــ كانت أيام جنون وولت، الآن صرت عاقلا!

ــ ليتك بقيت مجنونا! إن الجنون لرائع!!

ــ حسنا أيها المجنون، أسلك ذلك المنعطف فهو يؤدي إلى..

تجاهل كلماتي والمنعطف منطلقا كالصاروخ في ذات الطريق، فقلت له باستياء:

ــ كان ذلك الطريق لمسكني!

ــ فيما بعد، أريد أن أريك شيئا مسليا..

ــ ألم أطلعك على رغبتي بالنوم؟

ــ النوم يمكن تأجيله، أما ما سأريك إياه فلا!

لم أكثر من الكلام فقد بت منزعجا، أما عنه فقد أطلق العنان لإطارات سيارته، ولسماعات مسجلته التي أطلقت علينا زوبعة أغنية صاخبة شككتني في إصابة أذني بالصمم!

هكذا صار أي حوار بيننا شبه مستحيل، فأشعلت سيجارة مقررا اللوذ بالصمت لحين رؤية ما بجعبته من مفاجآت أخرى.

الفصل الرابع

حين بلغنا المكان المنشود شعرت بارتباك بالغ، فهذه البيئة مغايرة تماما للتي ألفتها.. كان فندقا فخما للغاية، من تلك الفنادق التي نراها في التلفاز أو دليل السياح المطبوع، عشرات السيارات الفارهة متوقفة في أماكن مخصصة بعسر وجد (غسق) لنفسه من بينها واحدا.. سألته متهكما:

ــ ألن ترمي بمفتاحك لفتى الفندق كي يركن لك سيارتك؟

ــ إنه موجود، لكنني أفضل ركنها بنفسي!

ــ لم أحضرتني إلى هنا؟

ــ إهدأ فأنت معي..

ترجلت من السيارة مقربا أنفي من إبطي، فشممت بقايا العطر الذي أهدتني إياه شقيقتي يوما بمناسبة عيد ميلادي..

تحسست ذقني كذلك، فوجدتها غاية بالخشونة، وبالطبع ارتديت ثيابي بلا كواء! تبعت (غسق) وأذناي تحمران خجلا كلما شاهدت متأنقا وسيما تتأبط ذراعه فتاة حسناء، ولاحظت بأن "المهراجا" الذي انحنى أمامنا أمام الباب الدوار رمقني بنظرات مستنكرة، فهمست في أذن (غسق) بقلق جم:

ـ هل أنت واثق بأنهم لن يرموني خارجا؟

ـ وهل يجرءون؟ إنك ضيفي..

ـ أظنهم يجرءون!

على بساط أحمر لين سرنا، سمعت ألحانا منبعثة من أوتار قيثارة مطلية بالذهب تنقلك إلى أرض الأحلام المبهجة، والعطر الذي انتشر عبقه في الأجواء الفسيحة يجبر ابن آدم على طلب التنفس منه بنهم متزايد.. شاهدت نافورة بديعة الصنع، في منتصفها مجسمات بلورية لبجعات تتوسطها واحدة تفرد جناحيها وعلى رأسها تاج، منظر ليس بغريب على عشاق "بحيرة البجع" لتشايكوفسكي..

همست لغسق كالحالم:

ـ مكاني ليس هنا، حتما ليس هنا!

ـ لماذا تقلل من شأنك دائما؟

ـ لأنني لو حضرت إلى هنا بمفردي فلسوف يطردونني شر طردة، المكان ليس لأمثالي بالفعل، أنا هنا فقط لأنني معك!

ـ كفّ عن قول الترهات واتبعني..

سرنا في ممر طويل يمتلئ بالتحف والنباتات الاصطناعية، حتى بلغنا بابا وضعت أمامه لافتة مثبتة عن طريق عامود مذهب له قاعدة دائرية يرتكز عليها لحفظ توازنه..

تقول اللافتة: *"فنون الإتيكيت والعلاقات العامة والبروتوكول"*

رمقتها بنظرة طويلة، ثم (غسق) بنظرة أطول وأنا أسأله:

ـ أتراني بربريا إلى هذا الحد وأحضرتني إلى هنا كي أتعلم

التحضر؟

ـ كفّ عن الحماقة واتبعني!

لم تكن قاعة محاضرات كما ظننت، بل مسرح فخم مقاعده عبارة عن طاولات بمفارش وأكواب وأطباق معدة للشرب والطعام، كان الحضور كثر، بعضهم يشرب "الشمبانيا" والبعض الآخر يدخن، في حين تنتشر ألحان قصبة (زامفير) الحالمة في الأرجاء..

انتقينا طاولة منزوية تقريبا بناء على طلبي، وجلسنا نرمق وجوه القوم الأثرياء الضاحكة التي تغوي ضعاف النفوس بالحسد، كنت أفكر في السبب الذي لأجله دعاني (غسق) إلى هنا..

ـ "عرفت السبب!"

رمقني بنظرة متهكمة متسائلا:

ـ وما هو أيها النبيه؟

ـ تريدني أن أشعر بالأسف على حياتي، وأن انظر وأتعلم كيف تكون الحياة على حقيقتها.. من وجهة نظرك بالطبع!

تبسم ساخرا وهو يرد:

ـ أتحسب هذه حياة حقا؟ لم أضيّع وقتي معك إذن؟ لم لا أستمتع بها فحسب وليذهب الجميع إلى جهنم؟

ـ لأننا أصدقاء، ولأنك تعتبر ذلك من مصلحتي..

ـ أهي عادتك الدائمة؟

ـ ألا وهي؟

ـ إلقاء الأفكار التي ترد في خاطرك بتلك الطريقة الغريبة

الصادمة..

ـ هي الصراحة..

ـ بل هي الصراحة المطلقة! لابد من استخدام المداهنة والتملق أحيانا!

حضر نادل أنيق لسؤالنا عما نود شربه، فطلب (غسق) عصير ليمون لي وله، ورحل النادل تاركا الطاولة التي يجلس إليها معتوه يرافقه منافس له في العته لموافقته على مرافقته إلى هنا!

أخرج (غسق) سيجارة وضعها في فمه، فصارت كلماته مضعضعة حينما قال:

ـ نصف النساء اللواتي هنا صدورهن اصطناعية، فلا تطل النظر!

ـ (غسق) يا مغفل! ذلك النصف تحديدا قد سمعك!

ونظرت لأجد فتاة غارقة في بحر من الأنوثة، تكاد تثير جنون الأثرياء الذين يتظاهرون بحسن الإصغاء لمرافقاتهم من النسوة الحسان ـ هن في الأغلب زوجاتهم ـ في حين أن أبصارهم تكاد تثقب فستان الفتاة الذي أبرز مفاتنها بوضوح كالوقت المتأخر والمرتسم على شاشة ساعتي الرقمية..

تلك الفتاة تحديدا ألقت بنظراتها علينا باسمة بتخابث، فصعرت لها خدي مداعبا بظفري غير المقلم منفضة سجائر كريستالية كانت موضوعة أمامي، وقلت وأذناي تحترقان:

ـ أيها الأحمق! لقد سمعتك الفتاة!

ـ أتدري؟ ابتسامتها تشي بأنني مخطئ في ملاحظتي تلك، لعلها تريدني أن أتأكد بنفسي منها؟

ـ (غسق) أيها المعتوه!

ـ حسنا أيها المهذب، لن أنطق ثانية.. أنظر، لقد ابتدأ العرض أخيرا!

ومع ظهور المضيفة الحسناء ذات الفستان الضيق والصدر الممتلئ خفتت موسيقى (زامفير) حتى صمتت، وسلط ضوء هادئ على وجهها وهي ترفع "ميكروفونا" إلى شفتيها الممتلئتين قائلة ببسمة مشرقة:

ـ سيداتي آنساتي سادتي، نرحب بكم في القاعة المرجانية، ونشكر لكم حضوركم لمحاضرة الليلة المميزة..

صفق الجميع ما عداي، في حين استرسلت المرأة:

ـ يشرفنا أن نستضيف الليلة الدكتور (أليجاندر أزدجير)، لسماع محاضرته القيمة التي أعدها لنا كي نستفيد منها، فنشكر له قدومه جزيل الشكر، ونتمنى لكم قضاء وقت ممتع..

ويعاود الجميع التصفيق، فقلت لغسق بضيق:

ـ أهذا ما تريدني أن أشاهده؟ لا أحسبني أستمتع بمحاضرة الدكتور مجهول الهوية معقد الاسم!

ردَّ مصفقا بحماسة:

ـ الصبر يا بني!

ـ هل الرجل بلغاري أم تشيكوسلوفاكي؟

ـ الله أعلم..

ـ وتأخذني لحضور محاضرته؟

عاود التصفيق المزعج بزوغه فجأة، فطالعت المسرح لأجد رجلا أصلعا يرتدي بدلة السهرة، يرمق الجميع بنظرات متعالية كأنما يبصر عن طريق أنفه، يداه خلف ظهره كالمقيد، وبدا بشاربه كالخواجات.. أخذ ينظف حلقه بطريقة أرستقراطية مضحكة، ولما تكلم خرجت حروف كلماته بعربية فصحى متقنة كما لو كان محاضرا جامعيا محنكا ـ ولعله كذلك ـ :

ـ "الإتيكيت" و"البروتوكول" يتطلبان مهارة من المتحضر اللبق والمثقف، لا واحد من العامة الذين يظنون أنها مجرد مظاهر تناسب المجتمع الغربي المخملي أكثر! ومن المهم تطبيق قواعد تحكم فن "الإتيكيت" الرفيع، في الاجتماعات والمؤتمرات، ولدى استقبال الوفود والضيوف المهمين أو أثناء مأدبة عشاء عمل، حتى في ترتيب وحضور الجنائز!

كذلك في الاتصالات والوظائف التكنولوجية، حيث أن رجل العلاقات العامة ينبغي عليه اكتساب مهارات تنظيم جلسات الندوات والمؤتمرات والاجتماعات المناقشة لصفقات العمل، سواء داخل الشركة، أو في حفل ساهر في السفارة، أو داخل فيلا أحد رجال الأعمال.. همست لغسق بضيق جم وأنا أشعل سيجارة لما شعرت بضيق التنفس ينتابني مجددا:

ـ أتحاول الانتقام مني لأجل شيء فعلته بك سابقا؟

ابتسم بصمت مشيرا إلى المحاضر، فقررت الإنصات حتى النهاية لعل وعسى..

قال الرجل بوجه متبلد وصوت مغناطيسي مثير للنعاس:

ـ لن نتكلم عن الشروط والقواعد الأساسية على الفور، بل سنطبق ونناقش أثناء التطبيق.. بداية أبين لكم الأسلوب المناسب للضحك والابتسامة والمصافحة، عند الابتسام يجب أن تكون الثقة غير المتعجرفة مخططة بين الشفتين، إن الدبلوماسيين يستخدمون ذلك الفن لدى استقبالهم ضيوفهم.. يمكنكم فعل ذلك، فقط تابعوا كيفية رسم الابتسامة! شعرت بسخف هائل لما يحدث، خاصة عندما أخذ الجميع يقلدون المحاضر كالحمقى في عملية رسم البسمة الدبلوماسية على شفاههم، فسألت لغسق متهكما:

ـ هل نصنع كما يصنعون؟

ارتفعت عقيرة الرجل حين قال بنبرة حادة قليلا:

ـ ومن آداب الإنصات حسن الإنصات!

كان يوجه كلامه إلي، فآثرت الصمت حامدا الله على أن الرجل لا يراني.. تقدم في تلك اللحظة شاب يرتدي بدلة أنيقة من المحاضر الممل الذي خاطبنا قائلا:

ـ لنرى الآن كيفية المصافحة الدبلوماسية السليمة..

كان الفتى مجرد مساعد له، تقدم مادا يده صوب المحاضر بطريقة أرستقراطية، ولكن ما إن أطبقت على كف الرجل حتى أطلق

الأخير صيحة مضحكة لها حدة أصوات النسوة!

قبض الدكتور ـ لا أذكر ما اسمه ـ كفه كأن حية قد عضتها، وهو يصرخ في وجه الفتى بلا تحضر:

ـ هل جننت أيها الحيوان؟ "سيكيوريتي"!

هرع رجال أمن الفندق للإمساك بالفتى الذي اخذ يلوح للحاضرين بالخاتم الكهربائي الموجود في راحة يده، واستعمله لصعق الدكتور، كل هذا والرجل يرغي ويزبد بلا تحفظات أو قواعد "إتيكيت"! حضرت المضيفة بذات الابتسامة مهدئة من روعه متبادلة معه بضع كلمات، في حين سارع رجال أمن الفندق بإخراج المساعد المزعوم! نظرت لغسق العاكف على إزالة دموع الضحك عن مقلتيه، وقلت له:

ـ أنت صنعت ذلك!

ـ والخير للأمام! أنت لم تر شيئا بعد!

أخيرا رفعت المرأة "الميكروفون" لتقول ببسمة تفيض حماسة:

ـ أيتها السيدات أيها السادة، لقد وافق الدكتور (أليجاندر) على استكمال المحاضرة لهذه الليلة.. فلنصفق له شاكرين!

ضجت القاعة بالتصفيق والتهليل لشجاعة الرجل النادرة وروحه الرياضية العالية، فتقبل ذلك كله وهو يلصق قبلة على أنامل المضيفة التي بدت سعيدة بذلك جدا..

قال بسماجة بعد أن هدأ التصفيق كأن شيئا لم يكن:

ـ من أهم أصول وقواعد "الإتيكيت" و"البروتوكول" تعلم آداب

معاملة السيدات رسميا، سواء في الحفلات والمآدب، أو في المؤتمرات أو الجنازات! لنطبق ذلك عمليا، سأختار واحدة من الآنسات، لنقل "المس" على الطاولة الثالثة بمفردها؟ التي على اليسار؟

كانت ذات الفتاة التي ابتسمت لنا، نهضت وسط عواصف التصفيق الذكوري الحار، ومساس الأكفف الأنثوية البارد، واتجهت لارتقاء درجات المسرح برشاقة اتجاه الدكتور الذي لانت ملامحه كثيرا وهو يستقبلها في حبور، مقبلا أطراف أناملها الغضة ببسمة ثعبان! كنت أتساءل ما إذا كانت هي الأخرى متواطئة مع صديقي الذي لن أصدق إمكانية تعرفه واحدة مثلها، والدكتور المحاضر يقتادها لطاولة من ذات عينة طاولاتنا، اختلافها كامن بزجاجة شراب فاخرة تقبع على سطحها داخل دلو ثلج مذهب، وكأسين من سائل ذهبي اللون كسائل غسيل الأطباق.. بطريقة رشيقة عاون الفتاة على الجلوس بأن سحب لها كرسيها، ولكن حينما اتخذ هو الآخر مجلسه فوجئنا بكرسيه يتهاوى من تحته! تدحرج دكتور قواعد فنون "الإتيكيت" كالبطيخة على المنحدر، ولم يفتني الاستنتاج بأن سيقان الكرسي قد تم نشرها! لم ينجح الكل بكتم ضحكه، في حين قهقه (غسق) مغطيا وجهه بكفه، مما دعاني لأن أقول له:

ـ إنك تعبث بالمسكين كالطابة، أظن أوان التوقف قد آن..

ـ هل تمزح؟ إنك لم تشهد الذروة بعد!

لن أضيع الوقت إذن بوصف صياح الرجل واتهاماته لهيئة الفندق بالإهمال الجسيم، المهم أنه عاود استئناف محاضرته ـ إنه

لا يستسلم بسهولة ــ عقب استبدال الكرسي، فتحدث عما أسماه "بآداب اللياقة والحوار وحسن الإنصات أثناء مجالسة النساء"، وطال كلامه واستطال حتى شعرت أنه آمن الآن وبأن مكروها لن يصيبه..

وفي نهاية حديثه المثير للضجر، رفع كأسه وكأنه يمثل إعلانا تجاريا، ليقرعها بكأس الفتاة الباسمة بعذوبة، ثم احتسى بعضا من الشراب، واقتاد بعد ذلك الفتاة لطاولتها وسط تصفيق الحضور المتحمس ــ ربما لوقوع مكروه آخر على رأس الرجل ــ ويلوح لي أن (غسق) كان أكثر المصفقين حماسة!

تكلم الرجل وسط الحضور عن آداب تقديم المرء نفسه أمام أحدهم، وأهمية إتقان ذلك بالصورة الملائمة..

اتجه إلى طاولة يجلس خلفها رجل بدين مع زوجته التي تنافسه بدانة، وانحنى بلباقة أمامهما قائلا بحزم:

ــ ينبغي ألا تكون الانحناءة أدنى من التي قمت بها، كأن أنحني هكذا.. (ومال لينحني أكثر)

وفي الثانية التالية فوجئنا به يستفرغ جل ما بمعدته من "كونتيننتال" و"كافيار" على فستان المرأة البدينة، التي شهقت شهقة هائلة وملامح وجهها جامعة مستجمعة ما بين الهلع والقرف والذهول!

ــ "يا للهول!"

وبصراحة ابتسمت فقط لدى ملاحظتي سعادة زوجها لما أصاب زوجته، في حين جذب (غسق) كفي قائلا وهو لا يكاد يتوقف عن الضحك: لنرحل، فقد انتهى عرض الليلة المرح!

الفصل الخامس

خرجنا من القاعة مسرعين وأنا أسأله مندهشا:

ــ ولكن كيف صنعت ذلك به؟

ــ أحقا لم تلاحظ؟ قد خيبت أملي فيك!

ألم تنتبه لجميلتي (ميريام) حين سقط المحاضر عن كرسيه؟

ــ الفتاة؟ أتعرفها؟

ــ لقد وضعت حبة الدواء في كأس الرجل وسط أجواء الهرج والمرج التي أحدثها بسقطته تلك، فكان ذلك أكثر من كاف لجعل معدته تقرع كطبول الهنود الحمر!

ــ وكيف تمكنت من إقناعها؟ والمساعد؟ ماذا عن الكرسي؟

ــ يا بني! كنت أخطط للعرض منذ أسبوع كامل! فقد أتيت لمشاهدة المحاضرة المملة مرات عدة لاتخاذ الخطوات المناسبة لتنظيم عرضي الخاص، فدفعت للمساعد مبلغا كبيرا، وكذلك لأحد العاملين هنا ليتدبر أمر الكرسي، ولولا مساهمة (ميريام) الختامية ما انتهى العرض بصورة ناجحة، كنت واثقا من أن المحاضر سيختارها هي بالذات دون غيرها من النساء، فهو يملك ذوقا رغم أنه يبدو كمخنث!

ــ كل ذلك الجهد والمال لأجل تلك التسلية العابرة؟ يا أخي أنت تعرف حقا كيف تتصرف بثروتك!

ـ ألم يكن الأمر مستحقا لذلك العناء كله؟

ـ لقد جعلتني أشفق على البائس..

ـ دعه، ربما يكف عن "الإتيكيت" ويذهب لإشغال وقته بما هو أنفع للجميع!

خرجنا من الفندق أخيرا، فوجدنا الفتاة المدعوة (ميريام) تقف ممسكة بسيجارة، تقدم (غسق) منها مبتسما، فطبع على خدها الأسيل قبلة قائلا لها بهمس:

ـ سبقتنا للخارج؟ إن لكِ خفة الهررة يا حلوتي!

ـ احتجتُ لتدخين سيجارة على انفراد..

ثم تأملتني بعينيها العسليتين متفرسة بملامحي بصورة خبيرة، وقالت:

ـ أنت هو إذن!

ـ أجل، أنا هو!

وهنا قامت بصنع أمر مريب وعجيب بعض الشيء، فقد دنت مني وتشممتني بالقرب من عنقي! تماما كما يصنع كلب الجمرك لدى تشممه بنهم حقيبة تاجر مخدرات!

ـ "لا تبدو خطرا، تبدو مسكينا.."

ـ "عرفتِ ذلك من الرائحة؟ على العموم لا تصدقي كل ما يقال عني.."

ـ "مع أني سمعت بأنك ذكي وشجاع لحد التهور.."

ـ "أرأيت؟"

تبسمت مرغمة، في حين قال لي (غسق):

ـ هلم كي أوصلك لمسكنك..

قالت معترضة بعقيرة مرتفعة وحادة:

ـ ماذا عني؟

ـ أنتِ لديكِ سيارتكِ!

وتأكيدا لكلامه وصلت سيارة من طراز "أوستن مارتن"، الأحدث حسب علمي المحدود بعالم السيارات!

هبط من السيارة عامل الفندق، فناول مفتاحها لصاحبتها التي ناولته بقشيشا ورقة من فئة المائة دولار!

سألت (غسق) وهي تهم بركوب مركبتها الرائعة:

ـ هل سنلتقي الليلة؟

ـ لا أظن، لدي صديقي الذي لم أره منذ سنوات، وأرغب بمجالسته لبعض الوقت..

ـ قد يرغب بالنوم، يبدو منهكا..

ـ ولدي مشاغل أخرى، لذا سأراكِ غدا بنفس الموعد، اتفقنا؟

هزت رأسها واجمة أن نعم، ثم ركبت سيارتها وانطلقت بها مسرعة بأكبر صخب ممكن!

ـ "إنكما تشكلان ثنائيا ممتازا في عالم رالي السيارات!"

ـ إنها فتاة متعبة..

ذهبنا لسيارته وأنا أسأله:

ـ وكيف تعارفتما؟

ـ إذا أردتها فهي لك، لدي من هي أجمل منها!

ـ منذ متى؟ أقصد أنك لم تكن يوما الفتى الذي يجيد مواعدة

الفتيات حسب معرفتي بك، فقد كنت تملك ذات عقدتي!

ــ تغيرت! أحسبتني سأظل فاشلا مثلك؟

ركبنا السيارة، فانطلق بها هو الآخر بصخب أكبر مؤكدا صحة النظرية!

*****

لذنا بالصمت معظم الوقت.. أحيانا أقطع حبله بتوجيه لغسق كي يقطع هذا الشارع أو ذاك المنعطف، لأنه مؤد إلى حيث أقطن..أخيرا بلغنا المنزل المنشود، فقلت لغسق وأنا أهبط من سيارته متثاقلا:

ــ هلم لأريك فيلتي أنا!

ــ حسبتك تريد أن تأوي لفراشك..

ــ كما أريتني عالمك يتوجب علي أن أريك عالمي..

فقال (غسق) متهكما وأنا أبحث عن المفتاح اللعين:

ــ منزل لسفاح؟

ــ بل لإنسان مهموم لحد الغثيان..

وجدت المفتاح في ذات الجيب الذي حسبته خاويا، لولا أن قمت بنبشه مرة ثانية! ففتحت به الباب، وكالعادة قمت بتوجيه رفسة قوية لطرف الباب السفلي عند زاويته اليسرى، لأنه يعلق دائما!

قلت الدعابة القديمة لغسق الذي يخطو للداخل قبلي:

ــ السيدات أولا..

فلكمني في ساعدي مداعبا، ثم قال متبسما وببصره يصول ويجول أرجاء المنزل دون انبهار عقب إشعالي الأنوار:

ــ توقعت أن يكون مليئا برسوماتك المعلقة..

ــ لا أتقن رسم المناظر الطبيعية، لذا لن تجد شيئا معلقا من رسمي!

دنا (غسق) من الطاولة، فوجد على سطحها لوحة مهملة كنت رسمتها قبل عدة سنوات، تمثل امرأة بالثوب الفلسطيني الأسود الذي يحمل نقوشا حمراء بديعة، تحمل بين ذراعيها رضيعا قتل بعيار ناري في جبهته، وهي تبكي عليه بدل الدموع دما..

ــ "أسميتها (دموع نازفة).."

ــ حزينة ومقبضة، لا زلت رساما ممتازا!

ــ شاي؟

ــ الرحمة! لا أذكر كم مرة شربت في هذه الليلة الحافلة شايا أو قهوة!

ــ كما تشاء، إن أردت شرب شيء فالمطبخ هناك..

ألحان سيمفونية "فيور إيليس" المثيرة للشجن تتصاعد بدعة، كانت دوما المفضلة لدي.. كنت قد شغلت أسطوانة (بيتهوفن) الموسيقار العبقري الأصم، ثم خلعت حذائي، واستلقيت على سريري وهو يعكف على تفحص زوايا المكان..

ــ "لكنه صغير وضيق الحجرات.."

ــ إنه ذوقي، أوليس غريبا؟

ــ اسخر كما شئت..

وتأمل المكتبة قائلا:

ــ طبعا لابد وأن تكون المكتبة أكبر من المسكن ذاته! ظننتك ستتوقف عن القراءة، فأنت اليوم كاتب.. أم تراك توقفت أيضا

عن الكتابة؟

– لأني كاتب يجدر بي ألا أتوقف عن القراءة.. منذ متى وأنت تراقبني؟

– ماذا قلت؟!

توقف عما يقوم بفعله ليوجه نظراته المحتارة صوبي، لكنني قلت دون أن أنظر إليه:

– أسألك منذ متى وأنت تراقبني؟

– لم أفهم!

عدلت نصفي العلوي واضعا راحتي على ركبتي قائلا:

– حسن، لقد كففت عن توجيهك إلى حيث أقطن، فوجدتك تعرف مكان إقامتي لأنك سلكت المنعطفات الصحيحة، وركنت السيارة أمام المنزل المنشود بالضبط!

و(ميريام) كلمتني كمن قابل من توقع رؤيته عما قريب، ودائما ما كنت تحدث شبانك البلهاء عني، كل هذا لا يمنحني إيحاء لقيا شخص مع آخر لم يره منذ زمن، فمنذ متى وأنت تراقبني إذن؟

– لكننا التقينا صدفة..

– لربما كنت تراقبني، من يدري؟ لكن اللقاء كان سيحدث عاجلا أم آجلا.. ما الذي تحاول توريطي به هذه المرة؟

– إنني..

– أخبرني أولا منذ متى وأنت تراقبني..

– منذ حوالي سنة أو أكثر، كان ذكاء منك أن تكشفني!

قلت غير مصدق:

– لماذا بحق الله؟ هل أدين لك ببعض المال؟

سارع (غسق) بالقول في حرارة:

– بسبب ما فكرت به جليا يا صاحبي.. "أوتوقراطيا"! إن "أوتوقراطيا" مجرد بذرة لن تلبث أن تغدو شجرة ميلاد عملاقة، وشجرة كتلك الشجرة بحاجة إلى.. إلى بستاني بارع.. مثلك!

– ماذا تقصد؟

– شبان وشابات سيصيرون أصحاب عزم وعزيمة، لا يريدون سوى حلولا جذرية وعملية، التي بإمكانها أن تصيرنا أقوى وأفضل..

– أولئك الذين يعتقدون أن القط قد ينتحر بسبب الفراغ أو الفشل في الحب؟

– أنا بحاجة لمساعدتك..

قالها (غسق) كمن أصيب بصداع مؤلم، فرددت عليه حائرا:

– مساعدتي؟!

– إنني أحاول بدء خطوة أولية سليمة من المهم أن تكون عملية، فنحن جميعا سئمنا الثرثرة الفارغة..

– يمكنني موافقتك على ذلك..

– إنني أنصت يا صاحبي! أشاهد وأكره عجزنا!

إنني أضع تحت تصرفك جيشا من الأثرياء من أبناء الكبار، فما قولك؟ أريد إحداث فرق في رتابة الحياة اللعينة، لذلك أنا بحاجة لعونك ولأفكارك، فهل ستكتفي بثرثرة مريرة على الورق أو بعرض مسرحي يزيد الهموم؟ جعلت (غسق) يقرأ الاسترخاء في ملامح وجهي، غير عالم أن كلماته قد أذهلتني داخليا بشدة، كان لها مفعول

السحر في كياني شبه المتبلد، عربد بداخلي نشاط مفاجئ تخلل كل ما اهترأ من جدران نفسيتي المكتئبة!

سئمنا من الأحاديث العقيمة! بقينا نقولها ولربما سنظل نقولها إلى يوم يبعثون، فهل سأتحول لمجرد متحدث آخر؟ هل ما يعرضه (غسق الغبرا) ما يمكن اعتباره صفقة العمر؟ وهل أغتنمها؟

الوقت لم يعد من ذهب أو كالسيف القاطع كما علمونا في الماضي الجميل، إنه الآن يضيع كهباء منثور، لذا سأضيع مزيدا منه بعملية تفكير دقيقة.. ثم حدَّجته بنظرة طويلة وصامتة قبيل سؤاله:

ـ أين كنت حقا كل تلك المدة الطويلة؟

نظر إليّ واجما، ثم اقترب وجلس على طرف الفراش متمتما بابتسامة سرابية لا يمكن التأكد من وجودها:

ـ عندما تكون داخل السجن حيث لا تتناول سوى العدس والبصل والشاي البارد وكسرة خبز جافة، يصير أي نوع رديء آخر من الطعام أشهى ما ذقته في حياتك!

ـ أنت كنت في السجن؟!

ـ كانت الأفكار تملأ رأسي في السجن، وعندما خرجت باشرت تنفيذها دون إضاعة مزيد من الوقت!

كنت أملك حلما وهو الحرية، وعندما تحققت لي انبهرت لدى رؤيتي متغيرات الحياة، وصرت أؤمن بأهمية تعويض المدة التي أضعتها من عمري بين أربعة جدران نتنة..

ـ ماذا كانت تهمتك؟

تنهد مهموما، فأدركت أنه لا يرغب بفتح هذا الموضوع،

فسارعت بتغيير سؤالي:

ـ كم لبثت داخله؟

ـ الأمر ليس سيئا إلى هذا الحد، صدقني! إذا ما اعتبرته مغامرة لمعرفة ما سيصير عليه العالم بعد تلك المدة الطويلة!

ـ العالم كالسلحفاة التي تغير من مكانها ببطء..

ـ بالعكس! العالم يتطور بسرعة البرق! يتحول بسرعة البرق! العالم مليء بمفاجآت لا يمكن تصورها!

ـ قد فرغت جعبة عالمنا من المفاجآت! فقد سحره منذ أمد بعيد..

ـ هذا ما تتصوره أنت لأنك تعيش عيشة الخواء! تأكل وتشرب وتنام بنمط متكرر رتيب الإيقاع، تكاد تتنبأ بما سيحدث لك غدا!

ـ السجن إيقاعه رتيب وممل أيضا!

ـ في السجن كنت أحصي عدد الأيام، كنت أتخيل الحياة في الخارج بعد كل تلك السنين.. العالم صار للأسوأ أم للأحسن؟ المشاكل حلت أم أضيفت لها مشاكل أخرى؟ الأمراض عولجت أم استبدلت بأمراض أخطر؟ قضايانا حلت أم تعقدت أكثر؟

كل يوم أقضيه داخل السجن كان يمدني بإثارة لا حدود لها! بلذة! أنتظر بفارغ الصبر تذوق طعام غير الذي يرغموننا عليه، أنتظر رؤية أجساد النساء المجردة من الثياب على شطآن البحر بدل الأبدان الذكورية المشحمة والمشعرة التي كنت أراها يوميا في حمامات قذرة تجبرك على القيء..

كنت أتوق في كل ليلة إلى تنشق العطور الفواحة، والتهام الحلويات اللذيذة، ومجالسة النساء الجميلات، وارتداء ثياب ناعمة، والاستلقاء على أسرّة مريحة.. كنت أحلم بالاستحمام في "بانيو" واسع ودافئ، وبدخول السينما والمسارح لمشاهدة عروض جديدة ورائعة..

فكرت فيما قاله (غسق)، فكرت كثيرا قبل أن أقول له:

ـ كلامك يجعل من السجن تذكرة للجنة!

ـ ربما بالنسبة لي، لكن شعوري كان هكذا داخله وبصدق! في السجن ثمة حلم تنساه خارجه، الحلم بالحرية! وعندما تخرج يصير الأكسجين أجمل! وتصير مخلوقات الله ولا أروع، تتلفت انبهارا بكل شيء حولك وأنت غير مصدق لما تشاهده، الناس من حولك يسيرون غير مبالين، في حين تبدو أنت بينهم كمن أتى من الماضي لكي يزور المستقبل!

ثم تنهد قبل قوله باسما وبصره معلق بساعة يده الرياضية:

ـ إذن، كان من اللطيف حقا لقاء صديق قديم وعزيز.. تصبح على خير..

لم أحاول استيقافه.. أوصلته للباب آملا بإغلاقه بسرعة ومن ثم الوثب في سريري كي أغط في نوم عميق.. إلا أنه توقف بغتة وهو يقول ضاربا جبهته بكفه كمن تذكر شيئا:

ـ كدت أنسى.. عيد ميلاد سعيدا!

الفصل السادس

في زاوية "الكافيه" شبه المعتمة تجدني.. كنت جالسا أدوّن بعض الملاحظات في مفكرة صغيرة اشتريتها مع القلم قبل برهة.. كالعادة طلبي المألوف موضوع أمامي، نصف القدح فرغ من الشاي، وثلاثة أرباع قطعة "الجاتوه" داخل معدتي..

لن أذكر ما كتبته لأنه مصنف تحت بند " سري للغاية "، أرجو عدم الاستخفاف لأن الأسرار ليس من الضروري أن تكون عسكرية كي تكتسب أهميتها، وإلا هل تجرؤ على مصارحة والديك بأنك ترتاد المقهى وتدخن مع رفاقك؟

لم ألتفت لأحد، لم أتأمل كعادتي في خلق الله، أتلصص على أفكارهم المفترضة كي أصاب بالغم، تركتهم هذه المرة لأني اليوم أعمل على ما هو أهم: تدوين ملاحظات سرية داخل مفكرة!

وأرجو عدم الاستخفاف مجددا!

بحثت أصابعي عن القلم وأنا غارق بتأمل ما قمت بتدوينه كي أصنع تعديلا خطر لي فجأة، عندما أزحته من دون قصد ليسقط أرضا.. انحنيت لالتقاطه، وعندما اعتدلت بوغت بشخص يجلس أمامي على المقعد المقابل!

كان هذا غريبا، فالمقعد كان خاليا أولا، وثانيا لم أستغرق سوى ثانية لالتقاط القلم دون تنبهي لجلوس أحدهم أو حتى لقدميه وهما تتخذان الأرضية أمامي موطئا لهما، وهكذا عدت لفوق كي أجد ـ على طريقة الحواة ـ شابا جالسا هناك على المقعد المقابل وبسمة ثقة تعلو ثغره!

قال بلا مقدمات:

ـ أحسنت!

ـ وهل أعرفك؟

ـ ربما!

قمحي البشرة هو، يضع نظارات طبية بالغة الأناقة، له بضع خصلات بيض رغم أنه في عمري تقريبا، يرتدي ثيابا أنيقة تدل على رفعة ذوقه، فهي رمادية من أسفل، حتى الحذاءين، ثم تصعد لفوق متدرجة رويدا وبتجانس للون أبيض ناصع.. شعرت بارتياح تام له، ولم أفهم السر وراء ذلك..

قال بلا تحفظ:

ـ خطبة حماسية عن التغيير المزعوم من صديق قديم عرفته طائشا في الماضي تسقطك في الفخ كغر ساذج؟

ـ ومن تكون أنت؟!

كذا دمدمت شاعرا بحدقتيّ تتسعان وبشدة..

وهنا انتابني الذهول العارم لما سمعته يقول بوجل:

ـ الحاجة تمزقني لكرامة..

أرفع لأجلها رأسي عاليا..

حتى الشهب الحارقة والنجوم المتلألئة..

بعيدا عن حضيض الخزي والعار..

الحاجة تمزقني لضمير آخر..

مثقل بالهموم والآلام..

كضميري..

لجواز سفر يحملني إلى السماء بلا أجنحة..

بين العصافير!

ربما لم أنطق لدقيقة كاملة قبل سؤاله:

ـ ما اسمك يا هذا؟

ـ (حصيف الألمعي)، هل تذكره؟

ـ يسهل تذكره لو تعرفته قبلا، لأنه اسم غريب كصاحبه!

من الذي أطلعك على الشعر الذي ألقيته؟ أهو (غسق الغبرا)؟

ـ أرجو عدم تكرار هذا السؤال ثانية!

ـ أليس من حقي معرفة مصدر علمك بكل تلك المعلومات عني؟

ـ أريدك أن تثق بي، فهل يمكنك ذلك؟

تفكرت هنيهة في ماهية هذا المجنون وأنا أسمعه يكرر تساؤله:

ـ هل بإمكانك الوثوق بي؟

ـ إنها المرة الأولى التي أراك بها!

ـ ثق أنها ليست كذلك، وعلى العموم لم يحن الوقت للتفسير!

ـ إذن فقد حان الوقت لشيء، ألا وهو؟

ــ عليك بالخلاص من فكرة "أوتوقراطيا"، لا تتورط مع (غسق الغبرا) في مشاريعه المقبلة إن كنت على قدر من الذكاء..

ــ وكيف علمت بهذه القصة أيضا؟ لا بد وأنه (غسق) الوغد، إنه يعابثني مجددا!

ــ والشعر الذي ألقيته على مسامعك؟

ــ قمت بتدوينه في فيلا (غسق) سابقا، لابد وأنه أطلعك عليه..

ــ حين سافرت إلى القطر العربي الذي زرته آخر مرة جلست مكان بائع العنب الذي لم يكن موجودا عند بضاعته فاغتنمت الفرصة للتأمل كما أن بعض المارة حاولوا الشراء منك، فكنت بائعا فاشلا!

ــ لا أذكر أنني سردت هذه القصة على أحد! ربما فعلت ذلك فأنا كثير النسيان هذه الأيام..

ــ وقد تسللت في آخر ليلة لك هناك إلى المنزل المهجور، حيث وقعت جريمة قتل مروعة، المحاسب الذي ذبح زوجته وأطفاله ثم انتحر بطلقة رصاص في الحلق! ما كنت لتفوت فرصة الدخول.. وهناك عثرت على بقع دم جاف!

قلت بصوت شابه كثير من التوتر وأنا شبه متأكد من أني لم أسرد تلك الحكاية على أحد:

ــ ذات المعضلة، لعلي سردتها لأحدهم قبلا، لدي أصدقاء كثر، ولا أذكر ما سردته عليهم..

غمغم متهكما:

ــ أصدقاء كثر؟!

نظرت في عينيه برهبة عجيبة وهو يضيف:

ــ لا بأس، حين كنت في المرحلة الابتدائية سقطت يدك على مسمار صدئ بارز من أحد ألواح "الجراج" الخشبي، وذلك ما تسبب بتلك الندبة أسفل رسغك الأيمن..

ــ تستطيع معرفة ذلك بسؤال واحد من الأهل، كشقيقي الأكبر مثلا!

ــ وفي المرحلة الإعدادية قمت بتقبيل فتاة صهباء على خدها، وأخبرتها أنك تحبها.. أترغب بمعرفة اسمها أيضا؟

ــ كيف علمت بهذا؟! أنا لم أطلع أحدا على هذه الحكاية من قبل قط!!

ــ كنت دوما كاتم أسرارك، وكنت ولازلت صديقك المخلص!

ــ ما اسمك مجددا؟

ــ اسمي (حصيف الألمعي)..

ــ يمكنني القسم بسهولة أنني لم أسمع باسمك الغريب قبلا!

ــ معك حق تقريبا، لكنني لا أحبذ فكرة القسم مع ذلك لأنك عرفتني يوما!

ــ إنك تثير أعصابي بغموض مستفز لا طائل منه!

ــ أعدك بأن ينقشع قريبا! لكن دعني أحذرك الآن من (غسق)، إياك والانخراط معه في مشروعه المقبل..

حككت ذقني ببرهة تفكير، ومن ثم قلت:

ــ أتعلم يا سيد (حصيف)؟ من عجائب الأمور أنني كنت هنا

قبل أسبوع أتأمل في حياتي المثيرة للشفقة، كنت أمقتها كمقتي لمشتقات الألبان! وظننت أنني باق على حالي التعسة تلك إلى يوم الدين.. بدت الحياة مقبضة ومعتادة للغاية، قبل ظهور (غسق) مودعا إياي داخل عالمه الجنوني من جديد!

والآن ظهرت أنت كي تحذرني من ذلك التغيير الذي طرأ! فهل بإمكانك إطلاعي على ما حلّ بحياتي الكئيبة السابقة؟ لقد بدأت أفتقدها بعض الشيء!

ـ أفضل عدم إخبارك..

ـ لا يمكنك كسب ثقة إنسان بتلك الطلاسم..

ـ هو مطلبي الوحيد، يجب أن توافق عليه لصالحك وصالح الجميع!

ـ إذن أجد نفسي مضطرا لقبول عرض (غسق)..

ـ ماذا تعني؟

ـ حين يعرض عليك شخص ما الفرصة لإحداث فرق في سير الأحداث الراهنة، هل ترفض عرضه؟

ـ أتظن الموضوع بهذه البساطة المتناهية؟ أنت تملك أفكارا لا بأس بها، لكن (غسق) لن يجيد استخدامها!

ـ أراهن بأنك ستطلعني على بعضها، أليس كذلك يا قارئ البخت؟

ـ بإمكاني فعل ذلك إن أحببت!

ماذا أصنع للخلاص من هذا المأزق يا إلهي؟

قلت بفظاظة:

ـ لا شكرًا، فقد أوصلت الرسالة وأنهيت واجبك بذلك..

نظر إليّ بطريقة أربكتني، ودفعتني للإشاحة ببصري اتجاه موقف السيارات، لأجد سيارة (غسق) قد وصلت أخيرا، فأسرعت أقول مستغلا ذلك:

ـ لقد وصل، وعلي الذهاب معه كي لا يشك بشيء..

فوجئت به يختطف القلم والمفكرة قائلا بجفاء:

ـ أعلم أنك لم تكترث لتحذيري البتة..

وانتزع ورقة دوّن عليها ما لم يدعني أتبينه للأسف، وقام بطيها بإحكام مسجلا على ظهرها تاريخا محددا يأتي بعد حوالي ثمانية أشهر، ثم ناولني إياها قائلا بنبرة حازمة:

ـ أريدك أن تقسم لي بأنك لن تفتح هذه الرسالة قبيل مقدم اليوم الذي سجلت تاريخه عليها..

ـ هل تمزح؟!

ـ أقسم! إن صديقك قادم لا محالة، ومن الأفضل ألا يراني..

إنه مطلبي الوحيد للآن وهو بسيط للغاية، بحق الله ألا يمكنك تنفيذه أيها المزعج؟

ـ إنك حقا لغريب الأطوار، وهو كذلك، وكن مطمئنا فكلمتي كلمة رجل..

ـ أعلم هذا! كن حذرًا..

ونهض دونما زيادة في الكلمات مغادرا المكان على عجل..

لم أجد طريقة للتفكر في حديث (حصيف) هذا، إذ لا توجد نقطة تصلح كبداية للانطلاق سوى أنه يعلم كل شيء عني تقريبا، شعرت أن تفسير ذلك سيتعدى حدود المنطق، لذا شعرت بالخوف..

كم أنا متأكد من عدم معرفتي بك يا(حصيف)! ترى لماذا رفض تفسير الغموض المحيط بالأمر؟ ألأنه مستحيل الحدوث ولا يصدقه منطق أو عقل؟ أنا لا أؤمن بتناسخ الأرواح، فهل حان الوقت للإيمان به؟

ـ "أستغفر الله العظيم!"

صببت اللعنات على رأس (إبليس) مقررا عدم البت في ذلك الموضوع ثانية، لدي رسالة (حصيف) التي سأضعها في جيبي الآن، وبعد بضعة أشهر سيتضح لي كل شيء كما آمل!

فما إن أخرجت يدي من جيبي حتى سمعت صوت (غسق) آتيا من خلفي:

ـ سامحني لتأخري عليك!

ـ لم أشعر بتأخرك مطلقا..

ـ هل ننطلق إذن؟

ـ هيا بنا..

خرجنا إلى حيث سيارته، فركبناها، وبسرعته الطائشة المعتادة انطلق (غسق) بها..

قلت له:

ـ لا يمكنك التغيير للأفضل ما لم تتغير أنت نفسك، ستقتل

أحدهم بالسرعة الهوجاء..

وظننته سيهزأ من قولي كعادته، إلا انه قال:

ـ وهأنذا اخفف من سرعتي!

ـ (حصيف الألمعي)، هل تعرفه؟

ردَّ ببرودة:

ـ اسم غريب! بالتأكيد لا، من يكون لتسألني عنه؟

ـ لا أحد..لا يمكنني الجزم ما إذا كان يكذب أم لا، ولكن يمكنني إيقافه عند حده فور ولوجه خانة الأخطاء..

لم أتمكن من اتخاذ قرار الانسحاب، روتين الحياة المقبض جعلني أقبل التحدي، و(حصيف) زاد فقط من صعوبة ذلك التحدي، لست مغرما بخانة الظل التي يقف فيها المهمشون ممن سقطوا سهوا من حسابات بلدهم وحكومتهم، أريد أن ألعب دورا في الكارثة المقبلة مهما بلغ حجمها! ولن أتمرد على طريقة (غسق) وأصدقاءه الأثرياء، ممن يعشقون اللهو على حساب أمثالي من ذوي الدخل المحدود، أفضل قلب الطاولة على رؤوسهم بدل التراجع كالجبناء!

ـ "اجتماع اليوم سيكون ذا طابع خاص"..

ـ كيف؟ ستخبرهم أنك صادفت اليوم كلبا يدخن الغليون؟

ـ اليوم ستسمعنا أفكارك الجهنمية..

ـ ماذا عنك؟

ـ لدي بعضها، قد أعرضها عليك أولا..

ـ أفكار تخريبية؟

ـ لم تقول هذا؟

وأوقف السيارة بغتة، وقال دون أن ينظر إلي وبصوت شابه بعض الجفاء: أعتقد أنني ضغطت عليك أكثر من اللازم..

ـ والمعنى؟

ـ نحن في النهاية مجرد ألسنة ثرثارة، كانت فكرة سيئة على كل حال!

ـ تحاول إزاحتي؟

ـ أظنك تحاول إزاحتنا جميعا معك، تريدنا أن نعاود مزاولة هواياتنا العابثة وأن نهرج ونطالع الأفلام الرديئة بدلا من نشرة الأخبار كي تكتب عنا بتهكم وسخرية!

ـ كلام فارغ لا أساس له من الصحة..

ـ لماذا تحاول زرع الإحباط بداخلنا إذن؟ هل اشتقت لحياتك النمطية أم ماذا؟ ظننت بأنني أحقق لك أمنيتك! ظننت بأني سأنتشلك من عالمك المثير للإحباط، والذي أغرى كثيرين بالانتحار أو إدمان الكحول والمخدرات.. هل جربت الانتحار مرة؟

ـ أنت تدعي معرفتي فقط..

ـ بل أعرفك جيدا لذا أستغرب كلامك، ربما صرت من سادة الكروش الذين يعشقون الظهور على التلفاز وفي الجرائد! بطنك ابتدأت بالتكور وأنت لم تلاحظها بعد يا صديقي؟

أتريد التغيير؟ هو جالس بجوارك إذن! وعاود الانطلاق بسيارته وبأقصى سرعة، وكأنه يسد باب نقاشنا وبكل عنف..

الفصل السابع

❖ بيان تم إطلاقه على صفحات الانترنت:

ما أخذ بالقوة لا يسترد.. بالقوة! **(تهكم)**

"أوتوقراطيا": الظلام الحالك قد تم نشره! **(لكنه ظلام تمويه للعبور من بين الحاقدين، يحمل في طياته النور لأجلنا!)**

أعزائي القراء، أعزائي المشاهدين، أعزائي المنصتين، أعزائي المتنصتين! أعزائي ممن يستخدمون شبكة "الإنترنت" اللعينة!

ثمة مراحل هامة، مراحل لها نكهة التغيير، فقد بدأت معركة التمرد! سأكون سعيدا ببث وقائعها، وهي حقائق تمت مناقشتها في اجتماعات "أوتوقراطيا" التي لا تهمها السرية، وقد ظهرت على شاشات التلفاز والحاسوب والهاتف المحمول وصفحات الجرائد كأخبار منوعات وطرائف لأنها قوبلت بالاستخفاف بداية، أما اليوم فهي تظهر في العناوين الرئيسية، مع أخبار آخر ضحايا إرهاب العرب في أمريكا وإسرائيل!

الدول العربية اليوم باتت متوجسة، معها كل الحق، لم تكن كذلك قبل ثمانية أشهر، بل إن رجالا ونساء وشبانا وشابات من مختلف الأعمار والجنسيات قد أعلنوا ولائهم التام لأوتوقراطيا، فتم

قبولهم على الفور بلا أوراق أو رسوم، بلا هويات أو جوازات سفر أو أذونات زيارة!

هل أنت أوتوقراطي؟ أتود أن تصير كذلك؟

ما الذي يغري بانضمام فرد مثلك يعشق النوم لأن قواه خائرة من فرط العمل الشاق، لدرجة عدم الاستجابة لرغبات زوجته الجنسية وغيرها، لانشغاله في تدبر مبالغ ذات أصفار متراكمة على يمين الأرقام لسداد إيجار المنزل أو الشقة، ولدفع فواتير الماء والكهرباء والهاتف والبقالة والدروس الخصوصية.. الخ؟

الوضع يتغير اليوم كانقلاب جذري في أسعار بورصة قدر لها الجميع خسارة مبينة، وإذ بها تقفز قفزة خرافية غير متوقعة، وكل ذلك إثر مجهود ثمانية أشهر فحسب!

فما الذي حدث بالضبط ويواصل حدوثه بتلك السرعة الجنونية؟ ولماذا صار اسم "أوتوقراطيا" يتردد على الألسنة هذه الأيام؟

كما أخبرناكم يا سادة، هنالك بداية لكل الجنون الذي ينتشر الآن.. كانت البداية لدى الهجوم على مواقع "الإنترنت"، ففي ذلك اليوم الرائع دخل آلاف الزوار مواقعهم المفضلة التي تظهر صورا بشعة زائفة لضحايا الغرب قائلة بأن تلك صنائع الإرهاب العربي، ومواقع ضحايا محارق النازية من اليهود الأبرياء ومذكرات (آن فرانك) الكاذبة، ومواقع عن طرائق ومناهج التعليم الأمريكية واليهودية في المدارس والجامعات (**فالعربي الجيد هو العربي الميت.. كل طفل غر يتوجب عليه معرفة ذلك بالسليقة**) ومواقع

الأغاني الداعية للشذوذ والتعري، وشتى المواقع التي تحاول إمطارنا بالأسئلة الوجودية السفسطائية لإرباك عقيدتنا، وجميع مواقع العولمة الأمريكية والتطبيع الإسرائيلي..

فما الذي وجدوه يا ترى؟

لا شيء! لا شيء سوى عبارة تقول:

"نحن من نشر الظلام الحالك!"

تحدثت الصحف عما حدث، وظن الجميع أن الموضوع لا يعدو مجرد عبث ومزاح..

لم يدركوا أن الأمر بات حتميا كالقدر، لم يتخيلوا أنه ممكن الحدوث، وعندما وقع كانت صدمتهم بالغة.. كان اختيار المواقع دقيقا، يشي بأننا تنظيم من نوع ما، لكننا مارسنا فيما بعد ما يمكن تسميته بالتخطيط العشوائي – إذا ما صح التعبير– فباشرنا إرسال الرسالة التالية عقب يوم من نشر خبر مهاجمتنا للمواقع على شبكة المعلومات..

اسم المرض: *"تاكسو بلاسموسيز"*

الأعراض: *صداع وحمى..*

الأسباب: *نقل القطط للطفيليات عند أكلها الفئران الناقلة لها، وتنتقل للإنسان عن طريق براز القطط..*

"تاكسو بلاسموسيز" هو فيروس حواسيب خطر، ابتكره عبقري – لا يمكن ذكر اسمه – لمحو بيانات وحسابات وأرباح وخسائر الشركات والمؤسسات والمصانع اليهودية، أو العربية الفاسدة والمطبعة مع اليهود!

لكن من الذي أرسل الفيروس لمهاجمة تلك الحواسيب الهامة؟
"نحن من نشر الظلام الحالك!"

أما عن الضربة الثالثة فقد كانت بحق التي أشعلت صفارات الإنذار، جاعلة أجهزة الإعلام والأمن مستنفرة، ففي الأسبوع الثالث من نشر الفيروس في ليلة الأحد بعد منتصف الليل، توقف البث في عديد من المحطات لدقيقة كاملة، تم عبرها نشر الرسالة التالية:

"إن أوتوقراطيا هي المسئولة عن نشر الظلام الحالك..
اليوم تجدنا في أي مكان، غدا تجدنا في كل مكان!"

كأنه إعلان عن متانة وجودة سلعة ما!

أما السؤال الأهم عن كيفية استمرار "أوتوقراطيا" رغم أجهزة الأمن المستنفرة، فإجابته ببساطة أننا أثرياء! لسنا مجرد تنظيم فقير أو نادي بلهاء أو جمعية بائسة تسعى للشهرة، إن "أوتوقراطيا" تضم أبناء المجتمع المخملي من أبناء رجال أعمال ووزراء ونجوم غناء وتمثيل شبان، والآباء والأمهات لن يسلموا أبنائهم للجهات الأمنية إذا ما علموا بنشاطاتهم السرية، بل سيسعون لحمايتهم بشتى الوسائل، والأمر ينطبق على الجهات الأمنية وحتى القوات الخاصة والجيش، وربما في قصور الرؤساء والحكام أيضا!

لا أحد من الفتية يفكر بخيانتنا لا بل على العكس تماما، الجميع يسعى لنيل الجنسية "الأوتوقراطية" لأنهم أدركوا أن رياح التغيير الحقيقي تعصف من عندنا..

أو لأنهم يعانون الفراغ المضجر!

ربما سئموا الاستمرار في لعبة جمع المزيد من الأموال ونيل مزيد من الشهرة، هم اليوم لليأس أقرب، ويبحثون الآن عن نمط آخر من الحياة، تحول جذري في الروتين السائد، انقلاب كلي في الموازين..

السطحية التي صار لها وزن وسمك لا يحتملان، واللحظات التي نظن معها بأن أوان الخلاص قد آن، في مظاهرة، في خطبة عصماء، في أغنية أو عرض أو مهرجان ما يهدف إلى جمع تبرعات

ذاهبة إلى جيوب ملأى سلفا، ومن ثم تدور سيمفونيتهم الصاخبة الكريهة مجددا بلا كلل..

جميل أن نتبسط، أن تكون ابتسامة المرء على قدر من الصفاء، صادقة كابتسامة فلاح لم يستنشق هواء المدينة الملوث قط، يرضى ويقنع بما يأتيه من رزق ولو كان شحيحا، ولا يعترف بالمال كوسيلة وحيدة لتحقيق السعادة..

ليت فطرة أمثاله تظل بمنأى عن دهليز النفور الذي نعايشه يوما بيوم.. لن أكون سعيدا لأني لم أجد لغاية اليوم مفهوما صريحا للسعادة.. هناك من يخادع فيقول بأنه يجد السعادة في ابتسامة طفل..

وهنالك من يبالغ حين يقول بأن السعادة كامنة في الحياة الزوجية.. ونرى السعداء يحشرون المال في خواصر الراقصات والغواني فنحسدهم، وحين نواجه أصحاب النزاهة القلائل نهتف بصوت يتقاطر كرامة أن السعادة ليست بامتلاك الأموال الطائلة!

أعتقد أن السعادة درجات متباينة، ربما هي مجرد لحظات عابرة.. الطالب يسعد بنجاحه ووالداه يسعدان به، والعروس سعيدة ليلة زفافها، ووالداها سعيدان لأجلها (شعور الوالدين بالسعادة صادق حين يتعلق الأمر بسعادة الأبناء..)

الموظف ينال ترقية كان ينتظرها بفارغ الصبر منذ زمن، والأديب الناشئ يفوز في مسابقة نظمها إتحاد ما للكتاب، رجل يعود إلى المنزل ليجد بأن زوجته قد طبخت له أكلته المفضلة، أو هي التي تدعوه بغنج للفراش! وآخر سعيد لأن زوجته قد أنجبت له أخيرا الولد

بعد دستة من البنات.. استشهادي ذاهب لنسف حاجز عسكري إسرائيلي، وهو سعيد لأنه بعد دقائق ملاق وجه ربه كشهيد..

ما الذي يجعل صبي المقهى يسارع بجلب صينية أكواب الشاي الزبائن وهو يضحك مترنما بالأغاني؟

ما الذي يدفع مئات المشجعين للتصفيق والتهليل بكل ذلك الحماس في المدرجات وهم يتابعون مباريات كرة القدم؟

أعتقد أن "أوتوقراطيا" هي الأمل الأخير..

لن تجدي الخيانة نفعا اليوم، لأن من سيحاول بيعنا سيضطر للتفاوض مع أوتوقراطي مخلص!

فالكل سأم دوره المفتعل في حياتنا المقبضة، الحكومات الرشيدة قد جن جنونها، وهي تتهم شتى عناصر أفرادها بالخيانة، إنهم يبحثون عن كبش الفداء، فهم لا يريدون فهم أن "أوتوقراطيا" هي أموالها وشبابها وقوتها.. الحقيقية طبعا!

من الصعب على الحكومة أن تتفهم الواقعة لأنها مرة كالعلقم في الفم! لا يزال تفهم الحكومة عسيرا، لا شك أنها آثار الصدمة..

لنساعدهم على التفهم إذن!

الفصل الثامن

كنا نتمشى في الهواء الطلق، عندما اقترح عليَّ (غسق) تناول طعام العشاء في مطعم قريب كنا قد زرناه سابقا وأحببنــا طعامــه.. سرنا برهة قبل أن أتساءل بعد إيجادي كلمات مناسبة:

ـ ما رأيك بما يحدث ويواصل حدوثه لغاية الآن؟

ـ أعتقد أننا سنغير العالم!

ـ (يوسف إدريس) أراد أن يغير العالم بالكتابة..

ـ لأنه ثرثار! نحن سنغيره بصنائع لا يمكن إيقافها كالقدر!

ـ صرنا خطرا محدقا في أنظارهم..

ـ أليسوا كذلك في أنظارنا؟

ألم تتوقع ذلك من حرب بدأناها ضدهم؟

وهل تنكر بأن ضرباتنا إليهم موجعة ذات تأثير؟

ـ لكم أرتجف من الخطوة التالية..

ـ هوِّن عليك..

وشرد بصره وهلة مردفا:

ـ هي آتية لا ريب، وأقرب مم تتصور..

كنا قد أوقفنا السيارة بعيدًا، ولما كانت قريبة من المطعم الذي نقصده آثرنا إكمال التمشي أسفل ضوء القمر الفضي، الذي أنار لنا الدرب مغريا بالتأمل في بهاء الليل وسكونه الخاشع..

ـ "أتراك سمعت بالرجل الذي أحرق سيارته أمريكية الصنع أمام السفارة الأمريكية؟"

تبسمت وأنا أرد:

ـ سمعت به وأغبطه على فعلته.. وهل سمعت بالفتى الذي قام بدس دواء الإسهال في وجبة رجل الأعمال اليهودي الذي قدم لافتتاح فرعه الخاص لوجبات "البرجر" السريعة؟ سيتردد الزبائن قبل المجيء لمطعمه عقب الحادثة!

ـ هنالك فنانة سريالية قامت برسم صورة لرئيس الوزراء الإسرائيلي على شكل خنزير! وعلى مؤخرته دوّنت بالعبرية: "أشيم ملوخلاخ" أي مجرم قذر! تلك الحادثة هي المفضلة لدي..

ـ أما المفضلة لدي فهي حادثة الرجل الذي دمر بسيارته متجر الخمور القريب من المسجد، مثل شجيع أفلام الحركة الأمريكية!

وضحك بجذل قائلا:

ـ ما هو شعورك وأنت شخص خطر ومطلوب اليوم؟

أصابني وجوم أعاقني عن الرد، هبط على رأسي وكأنني لم أفكر بذلك قبلا..

قرأ (غسق) ذلك في ملامحي فتساءل بحذر:

ـ خائف من أن يقبض علينا؟

ـ خائف من الفشل..

ـ لن نفشل، صحيح أننا كنا بارعين بهدم الجدران في الماضي، لكن بإمكاننا البناء أيضا..

ـ أشعر أننا سنهدم ما بنيناه هذه المرة!

ـ ما الذي دفعك لقول هذا؟

ـ من الصعب المحافظة على ما نقوم به، فهو من الأفعال التي لا يكتب لها الدوام، فنحن يوما بعد يوم نتوغل ونتعمق أكثر في عالم الفوضوية والتخريب!

ردَّ (غسق) بعصبية:

ـ وشريعة الغاب؟ وكل الهراء الذي تجيد قوله؟ تعلم الثقة بقدراتك..

ـ تلك ليست قدراتي، فأنت من يدير المعركة..

ـ وأنت صاحب الخطط اللامعة، هل نسيت؟

ـ إذن فلدي حمل يثقل كاهلي!

ـ وإذا كان عليهم الوصول للرأس المدبر للعمليات فسيكون عليهم اصطيادك قبل اصطيادي!

ـ ليس كل العمليات، الكل صار يعمل بمفرده..

ـ بعدما قدموا ولائهم لأوتوقراطيا.. في المتاعب معا من جديد كما الأيام الخوالي .. أليس كذلك يا جنرال؟

ـ اتفقنا ألا تناديني بهذا اللقب السخيف ثانية..

ـ لساني اللعين يعشق ارتكاب الأخطاء! لكنني سأعاقبه الليلة

بمضغ الطعام الساخن المليء بالفلفل الحار!

وصلنا المطعم أخيرا، فولجنا وجلسنا بالقرب من ذات النافذة التي جلسنا بجوارها سابقا..

ــ "سأطلب الدجاج المقلي.."

وأعاد (غسق) لائحة الطعام للنادلة الفاتنة، فقلت وأنا أحذو حذوه:

ــ سآخذ ذات طلبه مع حساء العدس..

وعقب رحيلها سألني بمكر:

ــ هل ميَّزت المقطوعة؟

أرهفت حاسة السمع عندي قبل أن أرد:

ــ "إمبرومبتو" لشوبان..

ــ ألم تذكرك بشيء؟

ــ لا..

ــ من كان يعشق سماع (شوبان) في فيلا "أوتوقراطيا" أيها الحذق؟

وهنا تذكرت على الفور فقلت:

ــ (وضاح)، ابن رجل الأعمال المتشدد!

ــ هذا المطعم له!

ــ تقصد لأبيه؟

ــ بل له هو! ابتاعه قبل مدة قصيرة!

ــ لا أصدق!

أخرج (غسق) من جيب سترته الجلدية الداخلي علبة سجائره قائلا:

ــ تحدى إرادة والده لصنع ما يشاء! إن الفتى..

ــ "إنه لشرف كبير!"

وجهت بصري صوب الذي تحدث، فوقع على شابة نصف حسناء قصيرة الشعر ذات تبرج متقن، وقد ارتدت ثوبا قرمزيا، صدرها ضامر كالهياكل العظمية، وقد زينته بقلادة لؤلؤية..

اقتربت وخلفها شاب أنيق يحمل علبة سيجار مفتوحة، هي نفسها كانت تحمل دلو ثلج رقدت بداخله زجاجة شراب فاخرة!

ــ "إنه لشرف كبير وعظيم أن يتعشى القادة عندنا!"

وانحنت لنا باحترام غير مصطنع، فسألتها:

ــ وما هذا الذي تقدمينه لنا؟ "كوكاكولا؟"

ــ والمقاطعة يا جنرال؟

وضع النادل ما يحمله على طاولتنا، ورئيسته تغمز لي رافعة إبهامها تأكيدا لجودة ما تحمله:

ــ أفخر أنواع "الويسكي" النيوزيلندي! وكل ما نقدمه لكما الليلة وكل ليلة على حساب المكان!

ــ يا للفخر! اشكري (وضاح) نيابة عنا إذن!

تبادلت نظرة مرحة مع (غسق) قبل أن تهتف ضاحكة:

ــ أيها الجنرال ألم تعرفني بعد؟

ــ أستميحك عذرا؟

ــ هذه إهانة لي داخل مطعمي! لكنك معذور بحق!

غارت الدماء في وجهي، وتدلى فكي السفلي محدقا بالشابة،

نظرت إلى قدميها حيث الحذاء بالكعبين الذي مشت به ببراعة..

ـ "(وضاح)؟!"

صاح بذات النبرة المخنثة بذراعين مفتوحتين وهو يدور كراقصة الباليه:

ـ ترا!!!!!!!!!

ـ رباه، ماذا فعلت بنفسك يا معتوه؟ أين لحيتك؟! أين رجولتك؟!

ـ بل قل ماذا صنعت بي الحرية، ماذا صنعت بي أوتوقراطيا!

ـ بالضبط! ماذا صنعت بك أوتوقراطيا؟!

ـ أوتوقراطيا التي أفتديها بروحي أخبرتني ألا بأس في إظهار ما أحس به وأرغب أن أكونه!

ـ امرأة...؟!

همس كالحالم متحسسا طرف شفته السفلى:

ـ امرأة يا جنرال! لست كاملا بعد، لكنني سأكون كذلك عما قريب، سأسافر إلى أمريكا في غضون أسبوع، وهناك سأتحول إلى ما أردت أن أكونه منذ سنين عديدة وكبته بخجل وخوف، لكن اليوم مختلف، اليوم أنا مواطن أوتوقراطي!

ـ يا فتى هل جننت؟!

واختطفت من يده زجاجة الويسكي المستورد وعيناي تنطقان بالشر وتقدحان شررا، فتراجع (وضاح) للخلف خائفا مرتعدا وقد غطى وجهه بذراعيه، لكنني قصدت تحطيم الزجاجة على الأرض..

بدا (غسق) هادئا وهو يدخن سيجارته دون تعليق، وتفشى الانزعاج بين رواد المطعم الذين حدقوا في وجهي المصوب بدوره اتجاه (وضاح).. اقتربت منه قائلا بقسوة وأنا أقبض ذراعه بقسوة:

ـ هل يعلم والدك بما تصنعه هنا من حماقات؟

ـ ما علاقة والدي بالذي أصنعه يا جنرال؟

ـ ما علاقة والدك؟ أنه والدك!

ـ ألا يقر مبدأ "أوتوقراطيا" ودستورها الحرية الشخصية يا جنرال؟

ـ أتريدني أن أدفن رأسك في الجدار؟!

تخلص من قبضتي متأوها، ثم تراجع أكثر قائلا كالطفلة التائهة:

ـ هل أخطأت يا جنرال؟

شعرت بعجزي عن إظهار مزيد من الغضب عندئذ..

ـ "فعلا.. لقد أخطأت يا فتى.."

أطفأ (غسق) سيجارته في المنفضة، ثم خاطب بحدة النادل الذي وقف من بعيد مراقبا ما حدث:

ـ أحضر حالا عصير ليمون للجنرال بدل التبلد كالصنم، ثم نظف الأرضية.. ورمق (وضاح) بنظرة قاسية، فانسحب الأخير كاسف البال حزينا..

وصل الليمون فناوله لي، ثم أشعل سيجارة جديدة متأملا النادل العاكف الآن على تنظيف الأرضية المصقولة من الشراب والزجاج المكسور، وبتهكم سألني:

— أتتمنى ضرب واحد معين؟

نظرت إليه بغضب عاصف:

— ما الذي تصنعه بالذي قمنا به لغاية الآن؟

— أغيِّر العالم!

— كيف؟

— بالطريقة التي أراها مناسبة أكثر من غيرها..

— إنك تدمر ما بنيناه معا!

— كل هذا بسبب فتى أراد أن يصير..

— منذ متى وأنت تراقبني؟

صمت قليلا قبل أن يجيب واضعا إبهامه وسبابته على شفته السفلى:

— أسلوبك يربكني ويثير حفيظتي.. دائما!

— منذ متى؟

— منذ حفل الليلة الماطرة، أتصدق أنني أقمت ذلك الحفل بأكمله للتأكد فقط من صدق ولائك وإخلاصك لأوتوقراطيا؟

— ثم قمت بمراقبتي بعد أن أثارت ردود أفعالي استغرابك، أليس كذلك؟ إذن فقد كنت تعلم بمحاولاتي تدميركم، وكنت أعلم بأنك تراقبني، فماذا الآن؟ ستحاكمني كخائن وتطلق الرصاص علي؟

وجرعت عصير الليمون دفعة واحدة لأن حلقي قد جف، ثم مسحت فمي وأنا أسمعه يجيب:

— صحيح أنك أفشلت بضع عمليات كانت لتخدم قضيتنا بشدة..

— شكرا!

— لكنك لا زلت الجنرال! والمعركة لا تزال دائرة..

— معركتي معك منتهية، إذا كانت هنالك واحدة فستكون ضدك أنتما.. يا خسارة المجهود الذي بذلناه! كنا سننجح معا يا (غسق)، لكنك أفسدت الأمر! المعركة التي تخوضها باتت خاسرة! فهي مرتكزة على التدمير المطلق، تحرك جنودك العميان كعرائس "الماريونيت"، وفي المقابل تغرقهم في لجة اللذات والمتع العابرة، ما يريحني أن كثيرا منهم ليسوا كذلك، فقد قاموا بما قاموا به لأجل التغيير الذي كنا ننشده!

— وأنت غبي! غبي إذا ما ظننت بأن الجميع ينشد الخلاص! لا يزال لكل شخص سعره، فلا أحد راغب بالتحرر على طريقة فقير تعس مثلك لا يملك سوى أحلام اليقظة، إنهم يتبعون الشخص الثري دوما! سواء أكانوا من الأغنياء أو الفقراء، ودائما يكون هو المنتصر! ونحن أثرياء يا صديقي! نحن الذين نملك المال والسلطة..

قلت بعسر وكلماته تزلزل كياني (حقيقة لا مجازا):

— أيها الحقير!

— كم أشفق عليك أيها التعس! كنت ستغدو جنرالا يخلده التاريخ، لكنك ركلت الفرصة الذهبية كما لو كانت علبة صفيح صدئة.

حاولت النهوض لكي أضربه، لكن جسدي تهالك وتهاوى بصورة لا تصدق كالبالون الذي أفرغ منه الهواء، وتشوش إرسالي الذهني تماما، فقلت مغتاظا:

ـ ودسست لي المخدر في الليمون؟ هل نحن في فيلم لجيمس بوند يا...

قرب وجهه من وجهي، فرأيته يتموج كاللوحة السريالية!

ـ "بل عقار الهلوسة! لجعل أحلامك أكثر سلاسة!"

ـ "صار من واجبي الآن تحطيم أنفك.."

وبالطبع لم أستطع النهوض، وصار وجهه آخذا بالابتعاد رغم أنه لا يزال واقفا في مكانه ولازلت على مقعدي، وهطل اللعاب من فمي المفغور شاعرا بأن (عزرائيل) يقبض روحي لكن برفق وحنو!

ـ "أراك لاحقا يا جنرال!"

ـ "ستندم .."

لكنه لم يسمعها.. كذلك أنا!

الفصل التاسع

ـ "رباه!!"

أين أنا بحق الله؟!

وعقب لحظات من التفكر والتذكر وعسر الاستيعاب، صحت بأقوى ما جادت به حنجرتي:

ـ حبستني يا (غسق) اللعين؟!

وشعرت بالندم لاستيقاظي من الوهم الجميل كما لو كان الأمر بيدي! انتابني دوار لعين جعلني أعاود الاستلقاء على السرير الذي وضعوه لي..

ـ "شكرا لكرمك الحاتمي أيها الحقير!"

يبدو بأن مجريات المحاكمة التي لم أحضرها لم تكن في صالحي على الإطلاق.. رمقت السقف المشقق بنظرات مشوشة ومفكرا بقلق: كم من الوقت سأظل هنا؟ أرجو ألا يتعمق (غسق) في أداء دوره الأحمق فيبقيني هنا للأبد جزاء خيانتي المزعومة!

وأنا أنافسه في الحماقة! ألست من تبعه في كل ذلك الجنون؟ لكنني أثبت حماقتي بجدارة حين صدقت ترهاته عن يوتوبيته "أوتوقراطيا" التي ستخلص معاركها الوطن العربي، كما لو كنا نتحدث عن "هرمجيدون"!

رفعت رأسي عن الوسادة بحرص لأن الدوار كان مزعجا بشدة، وهبطت من على سريري فكدت أفقد توازني بادئ الأمر، وعندما بلغت الجدار المقصود ارتكزت عليه لاهثا..

أهي مزحة؟!

كان من المفترض أن أشغل عقلي بتفقد موقفي الراهن، لكنه خذلني وأخذني بإصرار إلى نقطة خفية بين براثن ذكرياتي، نقطة محددة لها اسم محدد، اسم فتاة نشطة تدعى (دارين)..

*****

لم تكن (دارين) مثالا تقليديا للذكور الذين يبحثون عن البتول بارعة الحسن والقد والهندام.. كانت تضع قبعة بيضاوية مضحكة فوق شعرها ذي الخصلات اللولبية الكستنائية، أنفها الدقيق حمل بعض النمش البادي عن قرب قرمزي اللون، وترتدي بنطال "جينز" دوما مع كنزة صوفية بيضاء مربوطة عند الخصر..

تمتلك عينان ناضجتان رغم مظهرها العام الواشي بالسذاجة، فهي الذكاء يتسكع على قدمين.. يصعب على أي فتى متابعتها ببصر متلهف، نظرة واحدة سريعة وكافية كي يدرك أنها لا تروقه، إلا أن شعبيتها رغم ذلك كبيرة في الحرم الجامعي، فهي رئيسة اتحاد الطلبة التي يضرب بها المثل في التفوق والإقدام، نصيرة القضايا العادلة صغيرة كانت أم كبيرة، ناشطة سلام وحقوق إنسان متحمسة، والكل يتوقع أن تصير في المستقبل مسئولة ذات منصب رفيع المستوى..

كثيرا ما كنت ألاحقها بنظراتي أيام دراستي الجامعية، جذبتني

ابتسامتها المشرقة التي لم تفقدها يوما، وسمعت الكثير عن تفوقها ومنجزاتها، فاشتد إعجابي بصلابة عزمها ومتانة إرادتها مهما كان الظرف الذي تواجهه..

ذات مرة جلسنا متجاورين في محاضرة من محاضرات الدكتور (يانس) السقيمة، فبوغت بها تدير وجهها إلي وهي تهمس بتساؤل:

ـ ألديك محاضرته الفائتة؟

ـ أظن ذلك..

قلتها بنبرة متهدجة وأنا لا أكاد أصدق أنها حادثتني أخيرا، فردت قائلة بابتسامة:

ـ أود اقتراضها منك، أحيانا أفضل الموت على ولوج محاضرة لهذا المتعجرف الذي لا يفقه شيئا..

وهنا سمعنا صوته المحتد يتساءل:

ـ أثمة خطب يا حضرات؟ أثمة مشكلة يا آنسة؟

ـ لا شيء يا دكتور، آسفة..

ـ لم تحادثين زميلك إذن أثناء المحاضرة؟

ثم أضاف متهكما بوقاحة:

ـ أتراك تحبينه؟

وتوقع أن تضج القاعة بالضحك، لكن الجميع لاذ بالصمت..

(دارين) وحدها وجدت الشجاعة للرد بتحد:

ـ أجل..

ـ أجل ماذا؟

ـ أجل أحبه!

تضاحك البعض لما تلون وجه الدكتور قبيل هتافه المغتاظ:

ـ هذه قلة تهذيب!

ـ لماذا يا دكتور؟

ـ وتردين؟ حقا بنات آخر زمن!

في ذلك اليوم ابتسمت ملء ثغري، لكنني لم أشعر بالارتياح منذ ذلك اليوم أيضا، فقد تم وضعي في دائرة الضوء المحرجة لبعض الوقت أنا الكاره لشتى صنوف الشهرة.. أصابع كثيرة أشارت صوبي.. "ذاك هو حبيب (دارين)! الذي قالت (دارين) أنها تحبه في محاضرة الدكتور (يانس)!"

ـ "هآي!"

استدرت لأجدها واقفة بابتسامتها المرتسمة على ثغرها الصغير، ويدها تزيح قبعتها المضحكة للوراء قليلا بعدما كانت شبه مرخية على جفنيها، فرددت بارتباك:

ـ أهلا، بخصوص المحاضرة الفائتة..

ـ لا عليك، إنه مجرد أحمق لا يكف عن فضح نفسه كلما نطق!

ـ قصدت المحاضرة التي أردت استعارتها مني!

ـ آه! أرجو المعذرة..

ـ لا بأس، في الواقع لم أدونها، وعليه..

ـ مفهوم، شكرا للطفك..

بدت متجهمة الوجه وبصرها يطوف الأرجاء دوني، فقلت مصطنعا الرزانة:

ـ أتفق معك بشأن (يانس)، فهو مجرد أحمق..

تحررت من تجهمها بأن قالت مغتاظة:

ـ يقول ما يشاء وقتما يشاء دون مراعاة للمشاعر، كأن من حقه قول أي شيء سخيف وكريه يخطر في باله بحق أي طالب!

ـ لا بأس، كلنا عانينا منه..

ـ ليت أحدهم يذبحه ويريحنا!

تفحصتها بنظراتي مغمغما ببسمة شاحبة:

ـ حتى هذه الفكرة راودتنا جميعا!

وفي أيام المقاطعة المجيدة، قام الطلبة وعلى رأسهم (دارين) بوضع ممسحة للقدمين أمام مدخل "الكافيتيريا" تمثل علم الصهاينة، وبغضون دقائق اتسخ كليا بعدما كان ناصع البياض.. وحين حضر الدكتور الأمريكي (جيسي)، وثب بكل برودة من فوق الممسحة للعبور إلى داخل "الكافيتيريا"!

انتقمت (دارين) منه مع عدد من الطلبة يوم كانوا يهمون بشنق دمية محشوة ثقيلة الوزن لميكي ماوس من الطابق الأول في بهو الحرم الجامعي، ولما مر (جيسي) مصفرا كعادته أعطت (دارين) الإشارة لرفاقها، فألقوا بالدمية بعدما طوقوا عنقها بحبل معقود عقدة المشنقة، فهوت على أم رأسه!

سقط الرجل أرضا وقد تبعثرت أوراقه وسقطت نظاراته، فسارعوا بالتواري عن ناظريه كاتمين بصعوبة ضحكاتهم التي كادت أن تغادر أفواههم بجنون، في حين أطلق هو الصرخات، وأخذ يرغي ويزبد والكلمات النابية تخرج من فيه بلا رقيب أو حسيب، واستعمل ملافظ غاية بالانحطاط والسفالة من التي شاعت بين قومه وعلمتها أفلامهم لنا..

تقدم بشكوى إلى مدير الجامعة الذي حاول إنصافه كالمعتاد، لكن (دارين) وجماعتها خرجوا من المأزق لحسن الحظ..

ويوم توزيع نصوص عرض مسرحيتي نالت وبجدارة دور البطلة، مثلت الدور بحرارة جعلتني أحس بالغبطة لأنها أصرت على تولي الدور، تحمست لقضية حساسة من القضايا الكثر التي أحبت توليها، لا لنجومية أو لهراء التقاط الصور أو بحثا عن فرصة للاشتهار في المجلات والصحف..

في المظاهرات سرنا معا، هتفنا معا، ضد التطبيع، ضد إسرائيل، ضد المجازر، ضد أمريكا، كانت أمينة عام مظاهرات الجامعة، ولم تكن تتحرك دون استشارة مني، فكنا نخطط طيلة الليل للخطوة التالية، أو لصنع اللافتات المنددة.. بقينا على اتصال حتى بعد التخرج، وبقينا مواظبين على التظاهر والاعتصام أمام السفارات.. كانت غلطة مني أن عرفتها على (غسق) وشباب "أوتوقراطيا" الأحبة، في بادئ الأمر أظهروا حماسة زادت من حماستها، كانت (دارين) قد تخرجت من جامعتنا لتعمل في مجال

الإعلام، حلمها أن تصير مخرجة أفلام وثائقية، لكنها لم تنس المظاهرات والاعتصامات، وقد أطلعتنا على مظاهرة جديدة تضامنا مع الشعب الفلسطيني، فرفع (غسق) يده مؤديا التحية العسكرية!

وفي صباح يوم المظاهرة احتشدت الحشود، طلبة جامعات وأصحاب مهن حرفية وحتى بعض ربات المنازل، انطلقنا تتقدمنا أسوار من اللافتات التي حملت عناوين ذات جرأة تضاهي جرأة عناوين الجرائد..

كنت أهتف بأعلى ما جادت به عقيرتي إلى جوار (دارين) التي حملت مكبر صوت، كانت تصرخ متحمسة:

ـ "أوقفوا المجازر! أوقفوا القتلة!"

قوات مكافحة الشغب تراقبنا عن كثب وبتحفز، والشباب يفردون العلم الإسرائيلي تمهيدا لحرقه، بحثت عن شباب "أوتوقراطيا" فوجدت أغلبهم.. حسن، لنقل أن بعضهم كان يحسب المظاهرة مكانا مناسبا لاستخدام الهاتف النقال في تصوير بعض مفاتن المتظاهرات! صحيح أن أكثرهن محتشمات، لكن جند "أوتوقراطيا" الأخباث كانوا ينتهزون كل فرصة كالفهود الصيادة، فتاة توقع لافتتها أرضا بسهو، تنحني لالتقاطها، فيتحرك الأوتوقراطي ببراعة ثعلب لالتقاط ما تيسر من صدرها، ولربما انحناءة مؤخرتها إن لم ترق له الصورة الأولية!

شهقت متنبها إلى ما يحدث، ولما بحثت عن (غسق) كي آمره بزجر رفاقه، وجدت أغلبية فتيات أوتوقراطيا مندمجات مع شبيبة المظاهرة بشكل غريب، لدرجة أن أحدهم نزع كوفيته الفلسطينية

ليغطي بها كتف فتاة أوتوقراطية مدللة ذات ثوب فاضح، يبدو أنها اشتكت له من برودة الجو!

كان المكر مبينا على الوجوه الأوتوقراطية، هؤلاء أتوا كي يتسلوا فحسب! لا أحد منهم يكترث لمذابح الأطفال والنسوة والشيوخ، أو لسياسة أمريكا في الشرق الأوسط، ربما لا يعلمون اسم رئيس وزراء إسرائيل أو حتى اسم رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الحالي! كانوا ممن يظنون أن القط قد انتحر لفشله في الحب..

*****

كان والدي ممن يتنفسون فلسطين، يتابع ببصر ضعيف متألم ما آلت إليه أوضاع الوطن على قناة الجزيرة..

نادرا ما يقلب القناة، وعندما فعل في ذلك اليوم توقف على قناة عرضت "فيديو كليب" لأغنية من تلكم التي اعتدنا سفاهتها..

كان يرمق بخواء المطرب الذي يشدو بحماسة لفتاته الراقصة بالبكيني، عندما سألني مهموما:

ـ هل تعلم كيف سقطت الأندلس؟

أجبته بثقة:

ـ كانت غرناطة آخر ممالك الأندلس، وقد حاصرتها قشتالة طويلا قبل أن..

لكنه قاطعني بنفاد صبر:

ـ يحكى أن الأندلس قبل سقوطها بدت كحصن منيع لا يمكن إسقاطه، فقررت قشتالة الاستعانة بجواسيسها ومن ضمنهم واحد

داهية له نظرة مختلفة عن باقي الجواسيس..

في أحد الأيام وبينما كان ذلك الجاسوس يتصيد المعلومات الثمينة أبصر شابا يجلس حزينا على صخرة وبيده قوس ونشاب، اقترب منه وسأله عما يشغل باله، ردّ الفتى قائلا: أفكر كيف أجعل هذا القوس أقوى بحيث يخترق سهمه أكثر من قشتالي واحد!

فلما عاد الجاسوس أدراجه رفع تقريرا مفاده يقول:

ـ لم يحن الوقت بعد!

بعد سنوات يتصادف أن يقابل الجاسوس ذات الفتى عند ذات الصخرة، وعلى ذات جلوسه وشرود ذهنه، لكنه حمل بين أنامله وردة بدل القوس والنشاب، عندئذ دنا منه الجاسوس وسأله عما يشغل باله، فردّ الفتى مجيبا هذه المرة: أفكر ما إذا كانت هذه الوردة ستقنع حبيبتي بالخروج معي للرقص والغناء!

فقفل الجاسوس عائدا أدراجه مسرعا، ملخصا تقريره هذه المرة في عبارة بسيطة وقاطعة: لقد حان الوقت!

وهكذا سقطت الأندلس أخيرا!

تذكرت تلك الحكاية وأنا أشاهد بأم عيني حماقات شباب "أوتوقراطيا" تؤتي أكلها.. كنت احسبها مجرد حكاية رمزية، لكنني بت اليوم على يقين من أنها قد وقعت بحذافيرها.. رأيت اندماجا موفقا لا يمكن تصديقه، مظاهرة عن المجازر انقلبت إلى عيد للعشاق، صار يوم التنديد العالمي عيد الأخ "فالنتاين"!

رأيت بعض عناصر مكافحة الشغب يشيرون إلى تلك الفضائح

بهراواتهم ويضحكون! كانوا يسخرون منا ومعهم كل الحق..

بحثت عن (غسق) كي آمره بضبط رفاقه، فوجدته يهمس في أذن (دارين)، الظاهر أنها نكتة طريفة، فقد أنزلت مكبر الصوت كاتمة ضحكتها براحة يدها!

ثم لم يلبث أن تناول منها المكبر كي يهتف عبره في الحشود:

ـ شكرا على صبركم واهتمامكم بالقضية، ومكافأة لكم على سعيكم المشكور تنتظرنا حتى آخر الشارع حافلات ملأى بكل ما لذ وطاب من الوجبات الشهية والمشروبات المرطبة!

هلل الجميع، وهتفوا بحماسة أكبر، قد أكون مخطئا، لكنهم مشوا بسرعة أكبر حتى بلغوا آخر الشارع، حيث تنتظرنا حافلات (غسق)... لقد انتهت المظاهرة باكرا!

*****

أحداث عرفتها فأثارت شكوكي بشأن الفوضى..

أحداث قرعت ناقوس الخطر بداخلي، فجعلتني أجلس ملتقطا أنفاسي بصعوبة كي أفكر بترو، كان الخطر يدنو حثيثا، وفتية أوتوقراطيا يظهرون همة فوضوية كان عليّ مراجعتها بمفردي..

لست ممن يتابعون مباريات كرة القدم، ربما تركت القناة سهوا كي أرد على مكالمة هاتفية بشأن العمل، فلم أتابع بادئ الأمر، بل سمعت المعلق يقول بحماسته المعهودة:

ـ أعزائي ممن يشاهدون المباراة على شاشات التلفاز، أعزائي الحضور في مدرجات الإستاد..

أنظار الجميع مسلطة على ساق وقدم الكابتن (رائد) اليمنى، والتي اشتهرت بتسديد ركلات شبيهة بالقذائف الصاروخية، فتهز شباك مرمى الفريق الخصم هزا..

إن الضربات الترجيحية هي ما سيحدد مصير منتخبنا، والكل شبه مسترخ لأن (رائد) كابتن المنتخب هو الذي سيقوم بالتسديد الآن، الهدف مضمون مائة بالمائة، ونستطيع القول أن نسبة الفوز مرتفعة بفضل جهوده الذاتية.. هاهو واقف الآن والهدوء والثقة متبديان على وجهه.. الحكم يطلق صافرته..

و(رائد) لا يركض، بل يسير نحو الكرة بخطى حثيثة! صمت مطبق أصاب الجميع وهم يرقبونه باستغراب، أنا نفسي توقفت عن الثرثرة عبر الهاتف!

ـ "سأحادثك لاحقا!"

ووضعت السماعة كي أراقب ما يحدث.. والمعلق يصرخ مذهولا:

ـ أيها المشاهدون لقد تناول (رائد) الكرة بين يديه!! إنه يخرج شيئا من طيات قميصه.. مطواة! ذلك ما أخرجه.. إنه يشق جسم الكرة وتفريغها من الهواء!!

المشجعون جن جنونهم ، كذلك أعضاء الفريق، وبخاصة سنيور (جانيتي) مدرب المنتخب!

لقد أصاب الهرج والمرج المدرجات، وسقطت قوارير المشروبات الغازية على عشب الملعب الأخضر قاصدة رأس (رائد)

الذي تجاهل الفريق الطبي المنطلق نحوه كي يفحصه، وتساؤلات زملاءه من اللاعبين وصراخ مدربه الهادر، مغادرا أرض الملعب..

لقد جن كابتن منتخبنا حتما!

*****

ابتسم مقدم برنامج "نجم الليلة" أمام الكاميرات الدائرة لالتقاط بسمته الشهيرة التي تظهر وجهه دقيق الملامح كوجوه النساء، وقال بطريقة رجال المبيعات في ترويج بضاعتهم:

- أعزائي المشاهدين نجمنا لهذه الليلة أو بالأحرى نجمتنا لهذه الليلة فنانة غنية عن التعريف، اصطنعت لنفسها بصمة في تاريخ الفن، وسارت على سجادة حمراء مؤدية لطريق الفن بترفع الملكات (الخ من الهراء إياه) الفنانة (فلة جلنار)!

(تصفيق وتصفير من جمهور "الأستوديو" صاحب الحماس الزائف)

تصوب الكاميرات عدساتها لبث مناظر العري في بدن المرأة ذات الأرداف الممتلئة والصدر الاصطناعي إلى شاشات التلفاز الخاصة بالمشاهدين، لضمان عدم نهوضهم عنها أو التحويل عن القناة ... تقول الفنانة سالفة الذكر وهي تضع ساقا على ساق (ولو أنها باعدت ما بين ساقيها لعرف الجميع لون ثيابها الداخلية):

ـ الحمد لله عزوجل الذي وفقني، فجعل المعجبات كثر والمعجبين أكثر! ووفقني في جميع أفلامي وفي الرقص الشرقي ومحاولاتي الغنائية إلى ما يحب ويرضى!

ـ الاتصالات تنهال علينا منذ الآن، آلو؟

(صوت): البصمة الوحيدة التي تركتها فنانتنا المخضرمة هي في محضر الآداب! (يتم قطع الاتصال)

وعقب الإعلانات يلاحظ كل من شاهد ما حدث وجه المرأة الممتقع قليلا وهي تحاول تصنع البشاشة.. يقول المذيع محاولا ألا يفسد عرقه "الماكياج" الذي وضع لوجهه:

ـ الفنانة (جلنار) لو تحدثينا عن آخر أعمالك؟

ـ يمكنني فقط إعطاؤكم لمحات عن العمل لأنه سري للغاية، سألعب في فيلم جديد دور راقصة تقع في غرام الطبال، والمشروع تكلف حوالي خمسة ملايين جنيه!

ـ والمفاجأة السعيدة أعزائي المشاهدين أننا نملك حقوق بث المشاهد الأولية من الفيلم وما تم خلف كواليسه، وبالتأكيد نتلهف لمعرفة اسمه الذي تغير عدة مرات حسبما وردنا، ونتحرق شوقا لمشاهدته.. أعزائي إليكم المشاهد المثيرة الأولية من فيلم فنانتنا (فلة جلنار)! (تصفيق حار جدًا)

بالطبع كانت المشاهد مثيرة، وهي تغري حتما بمتابعتها لولا عقبة بسيطة: أنها ليست مشاهد فيلم النجمة المقصود!

أطلقت المرأة صرخة مريضة مختلة عقليا وهي تهب واقفة:

ـ أوقفوا البث، أوقفوه!!

وصرخ المذيع بذات الأمر وقد أفسد عرقه الماكياج تماما، في حين تسمر كل من يشاهد الحدث على شاشة التلفاز، متسائلا عن اللحظة التي سيصل فيها بوليس الآداب!

ـ "أوقفوا البث يا أوباش، أوقفوه!!"

وفي الثانية التالية هبط على رأس النجمة المحبوبة طلاء بلون البترول تصعب إزالته، ولما هم المذيع بتهدئة جنونها المشتعل أصابه ذات الشيء! والعجيب أن الكاميرات ظلت دائرة، بذلك تمكن المشاهدون في منازلهم من رؤية فقرات السيرك الاستعراضي بأكمله، وفيما بعد لم يعرف الفاعل على الإطلاق!

أطفأت التلفاز في تلك الليلة متذكرا حادثة قديمة بعض الشيء، متعلقة بفندق وقاعة ودكتور ـ نسيت اسمه ـ متخصص بالاتيكيت، فاستغل صديقي القديم الفرصة للسخرية منه!

كان المقلب يحمل بصمة (غسق)، ليس بالضرورة أن يكون هو من نفذه، فلابد وأن فتية أوتوقراطيا قد تعلموه بسرعة، فغسق ليس القائد الأعلى فحسب، إنه الأستاذ، المدرب، القدوة، الجنرال الحقيقي!

ما الذي حدث ويواصل حدوثه يا ترى؟!

*****

كانت هناك (ص) اللعينة، ابنة مليونير متغطرسة من الطراز الأول، فتاة غير قابلة للتغيير كما يبدو.. قامت تلك الفتاة بصفع العديد من الفتيات واستضعافهن، وشدت شعر مدرسة كبيرة في السن ثم صفعتها أيضا، ورغم ذلك كانت الأوامر واضحة: دعوها وشأنها! فوالدها أهم ممول للمدرسة الثانوية..

إنها بمثابة كابوس مقيت، خاصة وأن لسانها قد دأب على قذف المحصنات، و(ن) المسكينة راحت ضحية استمتاعها بافتراس سمعتها

وتشويهها تماما، حيث قامت (ص) بنشر إشاعة عنها تقول أن سر تفوقها الدائم سببه مشاطرتها الفراش مع معلم فاضل بريء، وقد تم فصله إثر نشر تلك الأكاذيب البغيضة عنه وعن تلميذته البريئة..

كان لابد من معاقبة (ص) أشد عقاب..

وهكذا، حضرت الفتاة ذات يوم لتجد المدرسة بأسرها ترمقها بنظرات الاستنكار والاحتقار!

ما الذي حدث؟ وما تلك الصور التي يمسكونها؟

وعلى صحيفة الحائط قرأت الإجابة.. بالأحرى شاهدتها!

لقد كانت الفتاة تخفي أمر شذوذها وميلها المريض نحو بنات جنسها كل تلك الفترة، لذلك سعت دوما لتدمير زميلاتها اللواتي يرفضن الاستجابة لنزواتها المنحرفة!

أما عن الصور التي وزعت وعلقت فتمثل حفل عقد قرانها على طالبة جامعية! حيث تظهرهما وهما يتبادلان قبلة هانئة! وقد تم الزفاف السعيد وشهر العسل الممتع داخل سكن طالبات الجامعة!

لقد انهارت (ص) بطريقة مثيرة للشفقة حقا..

وفي اليوم التالي كانت قد تركت المدرسة، ولم يسمع عنها أحد إلا عقب أسبوع كامل، عندما قاموا بتحرير الجثة المتأرجحة من الحبل الذي استخدمته الضحية لشنق نفسها..

يجب أن أعترف أنني لا أعرف من هي (ص) هذه بالضبط، طالعت الصحيفة التي نشرت هذا الخبر العجيب متخيلا تفاصيل القصة التي سردتها قبل قليل، فلم أمنع نفسي من تخيل غريمة

أوتوقراطية وهي جالسة في غرفتها مكيفة الهواء، على سرير وثير وبين دمى الدببة الوردية، كي تخط في مفكرتها المعطرة والملأى بصور الأزهار والقلوب خططا تعلمتها في المدرسة الأوتوقراطية للإيقاع ب(ص) هذه.. ما الذي حدث ويواصل حدوثه يا ترى؟!

الفصل العاشر

كنت ذات مساء في الشركة التي أعمل بها كمندوب، بلا عمل مطلوب مني لحسن الحظ، ففكرت باستخدام "الإنترنت" لبعض الوقت لتصفح بعض المواقع، ولتفقد بريدي الإلكتروني الذي قلما أطالعه لندرة رسائله.. لدي بعض المواقع المفضلة التي اعتدت زيارتها، متعلقة بالأفلام السينمائية والروايات واللوحات الفنية الشهيرة، وموقع وحيد أقوم عن طريقه بتحميل أغان لفيروز ومارسيل خليفة للاستمتاع بسماعها..

ولكن لدهشتي الشديدة وجدت رسالة بانتظاري محل كل موقع حاولت ولوجه:

"نحن من نشر الظلام الحالك!"

ــ "بحق الله!"

الأغبياء! أمرتهم بمهاجمة مواقع محددة، لكنهم تصرفوا بعشوائية مثيرة للغيظ!

قمت بداية بجولة سريعة للمواقع التي اعتدت زيارتها من قبل، ثم قمت بزيارة عشوائية لمواقع كثر تتحدث عن مواضيع عادية لا غبار عليها، فكانت النتيجة واحدة: *"نحن من نشر الظلام الحالك!"*

شددت شعري كالمجنون وعقلي يصيح:

ما الذي يصنعه أولئك الأغبياء بالضبط؟! إنهم يدمرون المواقع كلها بلا تمييز! لم لا؟ أليسوا جهلة لا يفهمون كيفية تفكير القط حتى؟ يجب إيقاف حمقهم على الفور، فهو من النوع المدمر!

هكذا سارعت بإرسال رسالة إلى بريد (غسق) الإلكتروني الثاني — يملك (غسق) بريدا لرسائل صديقاته، والآخر خاص بأوتوقراطيا — أدعوه فيها للذهاب إلى السينما، وقد كان الاتفاق بأن معنى ذلك عقد اجتماع طارئ الليلة مع أعضاء "أوتوقراطيا" في الفيلا غير المكتملة، ولأننا في قطر عربي آمن كان ذلك الإجراء أكثر من مطمئن بل ومبالغ به، فلو كنا في أمريكا لفكرنا ألف مرة على الأقل قبل استخدام مثل تلك الوسائل!

قمت كذلك بتفقد بريدي الإلكتروني لأنه أعلمني بوصول رسالة من شخص يسمي نفسه "غريب للأبد"، قمت بفتح رسالته على عجل، فوجدتها تقول: ***"هل فتحت الرسالة في التاريخ المحدد؟"***

والتوقيع: **ح**

استغرقني الأمر بضع ثوان قبيل تذكر الموضوع بالضبط.. رسالة (حصيف الألمعي) بالطبع!

وبنظرة سريعة على التقويم المعلق خلف رأسي، وجدت بأن ثمانية أشهر قد مضت عقب لقائنا الأول!

— "الفتى دقيق في مواعيده الغامضة دون أدنى شك!"

ولم أصدق متى انتهى وقت الدوام الرتيب، لكي أهرع بأقصى سرعة مغادرا الشركة، ولأوقف سيارة أجرة كي تقلني إلى حيث

أسكن.. وصلت أخيرا البناية التي أسكن إحدى شققها، فنقدت السائق أجرته المرتفعة التي طلبها رغم أنه لص لأنه لم يقم بتشغيل العداد، ثم هرعت إلى شقتي حيث ولجتها بطريقة أقرب للانقضاض، وعن الرسالة بحثت حتى تذكرت أخيرا أنني وضعتها بين صفحات رواية "الكونت دي مونت كريستو" المفضلة لدي..

تناولتها بسرعة، وبقلب خفاق كما لو كانت من حبيبة تحتضر فتحتها.. ثمة رقم مسجل لهاتف متحرك، وعبارة بخط نضيد تقول:

"في حال تيقنت من صحة كلامي!"

شعرت برهبة اعترت كياني بأسره لما فكرت بأن (حصيف) إما قادم من عالم الغيب أو أنه يطالعه!

سارعت بطلب ذلك الرقم، والعجيب أنه ردّ على الفور عقب الرنين الأول، كما لو كان يجلس منتظرا اتصالي ومتأهبا له! إذ قال بصوته الهادئ:

— أتراك وثقت بي الآن؟

— (حصيف)؟!

— لا تزال تظنني مجنونا؟

— أظنني أنا الذي جننت!

— لا تفكر بتلك الطريقة وإلا جننت فعلا، يجب أن تغدو متوقد الذهن حاضر الملكة، فنحن في سبيل مواجهة ما تصعب مواجهته..

— لم المبالغة؟ يمكننا اللجوء للشرطة..

— إياك والشرطة! إن لغسق هناك أعين وآذان!

ـ بتلك السرعة الفائقة؟!

ـ إن رياح التغيير الجذري تعصف كما النار في الهشيم، لكنه تغيير للأسوأ لسوء الحظ..

وكأن الجميع بات منتميا لأوتوقراطيا!

ـ وأنت كيف تعرف ذلك كله؟ أقدمت من عوالم الغد؟

ـ اهدأ بحق الله وكفً عن السخافات..

ـ لن أستمع لشيء بعد هذه اللحظة غير حقيقتك وحقيقة كيفية اطلاعك على كل تلك الوقائع عني، وإلا فليذهب كل شيء إلى سعير جهنم!

طال صمته لفترة جعلتني أقول متسائلا:

ـ هل لازلت على الخط؟

ـ أتذكر الحكاية عندما قابل (أوديسيوس) أو (أوليس) الحوريات في رحلة "الأوديسة "؟

أحسست بدهشة غمرتني لدرجة إصابتي بعسر النطق! في حين واصل هو سرده المبهم:

ـ قبل ذلك أمر (أوديسيوس) بحارته أن يقيدوه بالحبال إلى الصارية كي ينصت لغناء الحوريات حين تمر السفينة من أمام صخرتهن، ثم أمر رجاله بصب الشمع داخل آذانهم حتى لا يسمعوا الغناء المسحور، كما أنه أمرهم بعدم فك قيوده إلا عندما يبتعدوا عن صخرة الحوريات..

ـ طالعت "الأوديسة " وأتذكر أحداثها جيدا..

تجاهل ما قلته متابعا سرد الأسطورة الشهيرة:

ـ وحين مرت السفينة من أمام الصخرة، أبصر (أوديسيوس) الحوريات، واستمع لغنائهن العذب الذي دفع بكثير من البحارة في الماضي إلى محاولة السباحة إليهن وسط الأمواج المتلاطمة، مما أدى لغرقهم جميعا، وكاد (أوديسيوس) أن يحذو حذو الذين سبقوه لولا قيوده المحكمة، فصار يصرخ في رجاله بجنون لكي يحلوا وثاقه، وهم غير آبهين له ولصراخه، وفي النهاية عبرت السفينة الخطر بسلام من دون غرق بحار واحد..

والآن، هل تعلم لماذا سردت هذه الحكاية عليك يا صديقي؟

ـ أنتظر الإجابة بفارغ الصبر..

ـ لأنك أنت.. أنت (أوديسيوس)!

ـ أنا (أوديسيوس)؟

ـ أجل..

ـ وأفترض بأنك زوجتي (بينيلوبي)؟

ـ أنت تهزأ بي!

ـ معذرة، حسبتك من يفعل! أخبرني لم تحاولون إثارة جنوني؟

ـ نحن؟

ـ "أوتوقراطيا"! "الظلام الحالك"! أو أي تسمية لعينة ترضيكم!

ـ يا للخسارة..

ـ اذهب للجحيم أيها العميل الأوتوقراطي!

سارعت بإغلاق السماعة شاعرا بانزعاج غير محدود، لم أستفد

شيئا من المكالمة السخيفة سوى فاتورة مرتفعة أكثر من ذي قبل، أطلبه على هاتفه النقال ليحكي لي عن (أوديسيوس).. مغفل!

كان مقدار الأسئلة في عقلي كبيرا، لكن ما الفائدة إذا كان صاحب الأجوبة الشافية يرفض إجابتها؟

ما الذي أوقعني في دوامة مجهولة، قرارها مؤد إلى واد للجنون؟ وكأن الجميع التحق بكلية للمؤامرات، حيث قاموا بتعليق صورة لي بهدف التمرن على تحطيم كل ما هو سليم داخل عقلي!

*****

خرجت مسرعا ومقررا الذهاب إلى الفيلا على الفور لمجابهة (غسق) مهما كلف الأمر..

ربما أفكر في الزواج عقب انتهاء كل تلك الألغاز والمشاكل، فقد زادت حاجتي إلى بعض التغيير.. التغيير الذي ينفع ولا يضر!

ـ "احترس!!"

أجفلت ووجهي متصلب على ضوء مصابيح سيارة مكشوفة زرقاء اللون، واتسعت حدقتاي وأذناي تسمعان صوت الفرامل التي تم ضغطها بعنف شديد.. وعندما مسّت مقدمة السيارة ركبتي شعرت أنها قد صدمتني بالفعل، ولم أصدق فيما بعد أنها لم تفعل..

سمعت صوت بابها يفتح، وترجل السائق من السيارة على عجل، صوت خطواته تقرع الأرض، صوت الكعب البهلواني الذي تجيد الإناث انتعاله، وصوت ضعيف مرعوب يحاول بشتى الطرق أن يكون مسموعا:

ـ أنت؟!

شعرت بقرصات مؤلمة في وجهي، وبأن الارتطام الذي كان وشيك الوقوع قد أصابني في دماغي..

صوبت ببصري بعيدا عن ضوء السيارة المؤذي باتجاه وجه الفتاة التي تعرفتني، وبالتالي تعرفتها!

هي (سيرين)! ابنة رجل الأعمال التي تجيد صنع المشروبات الساخنة الرديئة، وقد وضعت على وجهها الناعم طنا من مساحيق التجميل بصورة منفرة..

قالت مرتعبة كما لو كانت سيارتها قد صدمتني بالفعل:

ـ هل أنت بخير يا جنرال؟ رباه! لقد كنت تسير وأنت تحادث نفسك، استعملت النفير لكنك لم..

ـ أنا بخير، لم أكن أعلم أنك تملكين رخصة قيادة..

وابتسمت، فتبسمت هي الأخرى بشفتين قامت بطلائهما بحمرة قانية، وقالت:

ـ صحيح أنني لم أبلغ السن القانونية بعد، لكن والدي..

ـ مفهوم، وإلى أين كنتِ متوجهة؟

أجابتني بحماسة:

ـ إلى الحفل المقام في مقر "أوتوقرطيا"!

ـ حفل؟

ـ أنت ذاهب إليه أيضا أليس كذلك يا جنرال؟ هلم بنا معا فالطقس ينذر بهطول المطر..

ـ لا أظنها فكرة سديدة..

تجاهلت قولي مسارعة بركوب سيارتها، وقبعت على مقعدها منتظرة إياي.. اتخذت مقعدي بجوارها، وحالما انطلقنا قيّمت أن ارتطامها الوشيك بي قد لا يكون أسوأ مما قد يصيبني وأنا معها داخل سيارتها، فقد كانت قيادتها سيئة للغاية وكأنها قيادة طفل!

سألتني وهي تجاهد في نقل عصا السرعة:

ـ بم كنت تحادث نفسك يا جنرال؟

أجبتها وبصري متصلب على الطريق:

ـ لا أذكر بالضبط، بالأحرى نسيت تماما!

ـ لننعش ذاكرتك إذن، كنت تفكر في خطة جديدة لصالح "أوتوقراطيا" أليس كذلك؟

ـ أعتقد هذا..

كنت بالفعل أفكر في خطة جديدة، خطة للإطاحة بدويلة (غسق) المجنونة، داخليا وبصفتي أحد القادة سيكون له عظيم الأثر، بدلا من أن أغدو ثائرا منشقا عنهم، وحينما فكرت بذلك أسفت بشدة على الجهود المضنية التي بذلناها في خدمة هدف سرابي..

سمعت (سيرين) تقول بنبرة خفيضة:

ـ فيم السرحان يا جنرال؟ أهنالك فتاة في الموضوع؟

ـ هنالك فوضى في الموضوع!

قلتها غاضبا مغتاظا، ثم شعرت بأني سأصفع نفسي من شدة غبائي، إذ لا يجب أن أتفوه بمثل تلك الترهات الموحية أمام فتاة ذات

انتماء "أوتوقراطي".. يا لرعونتي!

لكنها ردّت بصوتها الخائف المرتبك الذي ألفته:

ـ أتعتقد ذلك أيضا؟

ـ ماذا أعتقد؟

ـ الفوضى التي تسود..

أوقعتني زلة لساني إذن! وإن كانت تؤمن بأن الذي يحدث فوضى، قد تكون مدسوسة علي من قبل (غسق)، ولربما لم يكن لقائي بها عن طريق المصادفة البحتة!

ـ "قصدت فوضى توزيع الأدوار والمهام، يجب أن يسود النظام كل شيء!"

ـ "تقصد ذلك؟ آه.. الحق معك!"

فكرت بأنها قد تكون صادقة، لعلها لاحظت أيضا أن الأمر قد أضحى فوضويا وتخريبيا لأبعد الحدود.. وطبيعة (سيرين) تبينتها منذ لقائي الأول بها، هي لا تصلح أن تكون جاسوسة، هي لا تصلح لشيء في الواقع، بل هي بحاجة إلى من يعينها في كل شيء لأنها ضعيفة وتعيسة..

كانت صامتة لا تدر ما تقول، فرحمت أعصابها بقولي:

ـ أعتقد بأن "أوتوقراطيا" يجب أن تنتهي..

قالت محاولة صبغ لهجتها بالاستنكار المفتعل ـ لكن محاولتها باءت بالفشل ـ :

ـ ما الذي تقوله؟ لا يمكن فعل ذلك بأصدقائنا، لا يمكننا أن نخذلهم..

— إنهم يتحولون إلى عصابة مخربة، وقريبا سيخربون كل شيء على رؤوس الجميع!

— إنهم لا يعرفون، هم فقط.. أنا لا أعلم!

— أظنني وإياك متفقان على أن الأمور قد باتت أخطر..

— ليس تماما، لكن..

— علينا بوضع حد لأعمال (غسق) التخريبية، فجنونه سيودي بنا جميعا..

— نخون القائد الأعلى؟! لا يمكننا أن..

— بالعقل فقط! فكري بواسطته وكوني أقوى من الألقاب الكاذبة التي يسمعونك إياها! مجرد ألقاب جوفاء، فلا أنا بجنرال ولا هو بقائد أعلى!

كانت حال المسكينة يرثى لها وهي تنصت لاعترافاتي الصادمة، فتلعثمت في كلامها:

— لا أظن بأن فعل ذلك يتوجب علينا فقد..

— احترسي!!

صرخت صرخة ذعر تصم الآذان وهي تضغط دواسة الفرامل بكلتي قدميها، إلا أن ذلك لم يمنع الارتطام هذه المرة للأسف!

عجلت بالهبوط وهي تصيح مرتعدة الأوصال:

— هل مات؟ أقسم أنني لم ألمحه!

— سأفحصه لكن اهدأي..

ران على المكان صمت رهيب مطبق، قطعته (سيرين) بقولها:

— هل مات؟

— أخشى أنه قد مات.. للأسف!

شهقت الفتاة شهقة عارمة، وسالت أحرف كلماتها مع عبراتها متقطعة متألمة:

— يا إلهي! لم أقصد أذيته!

قلت وأنا أعتدل واقفا:

— إنه مجرد قط متشرد!

— سامحني أرجوك يا إلهي!

وارتمت في أحضاني لتغسل بدموعها قميصي، وبالتأكيد لتنظف أنفها من المخاط الذي سال، لو كان عندي ذرة شك بشأنها فقد تلاشت كليا، فالفتاة عاطفية لحد السذاجة!

قلت لها ممازحا كي أخفف عنها:

— هل لاحظت؟ القط المسكين لم يشأ الانتحار، كان يحاول عبور الشارع فقط!

— وأنا قتلته، يالي من مجرمة!

اقتدتها إلى باب سيارتها برفق، فصاحت مرتدة للخلف:

— لن أقودها! أقسم أنني لن أقودها ثانية!

— قرار حكيم!

وهكذا توجب علي القيادة عوضا عنها، أنا الذي قدت سيارة آخر مرة قبل حوالي عشرة أعوام!

دعوت الله أن تكون بقايا دروس القيادة لازالت عالقة في

رأسي، فالرخصة التي في جيبي باتت تصلح للزينة..

انطلقت بنا السيارة لحسن الحظ، فناولت (سيرين) علبة المحارم التي سقطت أسفل مقعد السائق بسبب التوقف العنيف، وسألتها برفق:

ــ هل أنت بخير الآن؟

مسحت دموعها ومخاطها وهي تهمس محرجة:

ــ معذرة، إنني خرقاء للغاية!

ــ أنت طيبة للغاية، وذلك ما يحتاجه عالمنا بشدة..

قالت (سيرين) وقد تحول الكحل في عينيها لخطين مرتسمين على خديها:

ــ هل لاحظت؟

ــ ماذا؟

ــ القط الذي قتلته..

ــ كانت مجرد حادثة يا (سيرين)..

استرسلت لامبالية:

ــ كان أسود اللون تماما!

ــ أرجو ألا تكوني ممن يؤمنون بمثل تلك الخزعبلات..

طالعتني بنظرات كلها عبوس قبل أن تقول محتدة:

ــ ألا تعلم بأن الكلاب السوداء التي تحمل بقعتين بيضاوين فوق العينان والقطط السوداء تماما هي تجسيد للشيطان؟

ــ من أين لك بهذه المعلومات؟

ــ كانت أمي المسيحية المتدينة تقول لي ذلك دوما حين ترى

كلبا أو قطا أسود.. ثم تراءى الشرود في محياها اللطيف قائلة بصوت أنصت له بصعوبة لخفوته:

ــ كانت تغني لي أغان حلوة قبل نومي، عن الطيور الطنانة والزهور، عن الملائكة الذين يأتون لاصطحاب الطفلة الصغيرة ذات الضفيرة الطويلة إلى الفردوس، وهم يقرعون الأجراس وينشرون أجنحتهم الضخمة في الفضاء الواسع ليحلقوا عاليا!

بتلك الطريقة كانت تحتال علي لتقوم بتضفير شعري.. كم أفتقد لمسات يديها الدافئتين!

وتبدت بسمة حنين للماضي الجميل على شفتيها، فسألتها:

ــ وأين هي والدتك الآن؟

ــ ماتت عقب ولادتي مباشرة، لكم أشتاق لها!

رمقتها بحذر كما ننظر إلى مجنون خطر يمر بالقرب منا!

سألتني وقد بدت على ما لا يرام:

ــ هل قرأت شيئا عن نهاية العالم؟

حدَّجتها بنظرات مستغربة قبل ردي المتوجس:

ــ نهاية العالم؟

ــ أجل..

ــ قرأت ذات مرة أن الناقد اليوناني (أريستارخوس) أقر بأن على الكون الانتهاء خلال ٢٤٠٤ سنة، وأن أبا التاريخ (هيرودوت) رأى بأن الكون سينتهي خلال ١٠٨٠٠ سنة!

ابتسمت مسبلة عينيها هامسة:

ـ كفٍ عن الحديث كالعقول الإلكترونية في الأفلام الكارتونية!

ـ كل ذلك محض هراء بالطبع!

ـ أدرك هذا رغم أني لم أفهم! ترى كيف يكون العالم الآخر؟

ـ علم ذلك عند ربي..

ـ أهو كما تعلمت عنه في ديانتي؟ أم تراه كما ذكرت ديانتكم؟ فردوس ونار حامية؟

أم هو كمملكة "هيدز" المظلمة في الميثولوجيا الإغريقية؟ حيث تستحيل الأجساد أرواحا هائمة معذبة؟ أم أنه كما يقر تلمود اليهود؟ لا طعام و لا شراب ولا ضغائن أو أحقاد، بل يجلس صاحب العمل الخير وعلى رأسه تاج، حيث يتمتع برونق السكينة والطمأنينة؟

كانت هنالك طريقة وحيدة للمعرفة..

هكذا صعدتُ على حاجز الجسر متخذة أخطر قراراتي على الإطلاق! فكرتُ بأن العالم الآخر مهما كان يحوي من عذاب سيظل أكثر رحمة من عالمنا الرهيب الذي نحيا به.. أنا مجرد قملة تافهة في هذا المجتمع الذي لم يسمع بالرحمة، ففيم الاستمرارية إذن؟

ـ إنك تهلوسين يا فتاة..

ـ ثم فردتُ ذراعيّ كنسر متأهب لرحلة البحث عن عشاء، بعدها..

كانت تهتز أثناء حديثها قبل أن تفرد ذراعيها بالفعل، فأصابت بكفها اليسرى عيني، مما جعل توازن السيارة يختل، ولولا ستر الله لكنا اصطدمنا بالرصيف المرتفع وانقلبنا!

أمسكت بكفها الخطرة قائلا بعين مغمضة والأخرى متصلبة على الطريق الخطر:

ـ إهدأي أيتها المعتوهة!

رفعت عقيرتها الضعيفة لأعلى درجة، حيث صاحت مترنحة كالسكارى محاولة مقاومتي:

ـ أين ماما؟ لماذا أنقذتني؟ لماذا تعيدني إلى حياة كففت عنها منذ أمد بعيد؟ دعني أذهب لماما!

ـ يالكِ من فتاة مخبولة!

أسرعت بإيقاف السيارة على جانب الطريق، ثم سألتها وقد قبضت ذراعها اليمنى وكفها اليسرى بيدي الاثنتين بقسوة:

ـ أأنت ثملة؟

بالطبع لا، لأنها كانت طبيعية منذ البداية، ولا أثر لرائحة خبيثة متصاعدة من فمها.. شرعت بتفحصها بينما هي تنشد بالإنجليزية أنشودة يبدو وأنها تعلمتها أيام الروضة:

ـ *"قطتي الصغيرة ، قطتي الصغيرة..*

أين ذهبت؟

ذهبت إلى لندن..

لأنظر إلى الملكة..

قطتي الصغيرة، قطتي الصغيرة..

ماذا فعلت هناك؟

أخفت فارا صغيرا..

أسفل كرسيها!"

وأخذت تردد الأنشودة بصوت مرتعش كجسدها الذي باتت حاله سيئة، والأسوأ كان المطر الذي شرع بالهطول، فقمت بسحب سقف السيارة المتحرك وتثبيته فوقنا..

أخيرا هدأت واستسلمت للنوم! فتفحصتها برفق.. كان الشارع هادئا شبه خال على غير العادة لحسن الحظ، وإلا لكان أحدهم واقفا أمامي ليتهمني بمحاولة التحرش بالآنسة اللطيفة!

وهنا استرعى انتباهي تلكم النقاط على جلد ساعدها، كانت آثار لإبر! وقد حاولت إخفائها بثوب طويل الأكمام، لم أكن بحاجة لمزيد من الذكاء كي أدرك سبب وجود تلك الثقوب الدقيقة المقيتة..

تمعنت في وجهها الذي استحال شاحبا، فاستولى حزن عميق على كياني، ليذهب (غسق) إلى الجحيم! إن هذه المسكينة بحاجة لرعاية طبية، بحاجة للإنقاذ..

*****

عاودت الانطلاق بالسيارة مفكرا بالمكان الأمثل لنقلها إليه، لا أعلم عنوانها للأسف، ولا أملك خيارا آخر سوى بأخذها للمستشفى رغم ما سيصيبني من متاعب جراء ذلك..

هناك ــ كما توقعت بالضبط ــ رمقتني الممرضة ــ أو الطبيبة لا أعلم يقينا– بنظرات تتقاطر شكا واشمئزازا، فقد كانت تشتبه بكوني القذر الذي حقن الفتاة بالمخدرات.. قالت بصلابة وبساعدين موثقين أمام صدرها:

ــ سيدي أنا مضطرة لإبلاغ الشرطة، وذلك يستلزم وجودك بالطبع..

ــ افعلي ما هو صائب، لكن اعلمي بأنني فعلت الصواب ايضا، فقد وجدتها بتلك الحال المزرية، ورغم كل العواقب المتوقعة سارعت بجلبها إلى هنا..

وصوبت نظرات ملؤها التحدي إلى عيني المرأة، فتزعزع ازدرائها لي شيئا فشيئا، حتى بدت موقنة من تلاوتي الصدق، وإن لم يرحل الحزم عن صوتها لما قالت:

ــ انتظر هنا فحسب..

ــ هل ستكون بخير؟

ــ أخشى أيها السيد أنها قد ماتت للأسف!

كنت أتأمل وجه المرأة الدميم، وشعرت أنني أحدق في واجهة زجاجية لأحد المحلات، ليس لمعاينة البضاعة، وإنما لرؤية انعكاس وجهي على الزجاج!

يا لثقل كلمة موت رغم تكونها من ثلاثة حروف فقط! حين تطالع أخبار ضحاياه في الجرائد، أو تشاهدهم في حوادث الدهس أو التصادم أو على الأسرة داخل المستشفيات، حين يصيب القريب والغريب فلا يفرق بين أحد على الإطلاق لأنه الموت شخصيا!

وعلاقتي بسيرين لم تكن متوطدة، غير أني وجدت عقلي يستعيد تفاصيل لقائي بها مرارا وتكرارا، دون أن يهدأ للحظة واحدة، مما أشعرني بفقدان شخص عزيز علي جدا..

رحلت المرأة وتركتني جالسا وشاعرا بضيق في أنفاسي، وبحاجة ملحة للتأمل.. كانت (سيرين) تهوى صنع المشروبات الساخنة رديئة المذاق، وكنت أستمتع بإرضائها حينما أشرب بحماسة ما قامت بإعداده لأن ذلك يجعلها سعيدة، لكنها الآن لن تتمكن من صنع أي شيء كان لي أو لغيري بعد اليوم.. كانت فتاة مضطربة ومشوشة الذهن لأبعد الحدود.. أرجوك يا إلهي أن ترحمها!

لم لا أتمكن من البكاء عندما أكون بحاجة ملحة إليه؟!

ـ "يالك من حياة سخيفة!"

كان ذهني غير حاضر، أرى من خلاله صورا تقشعر لها الأبدان لجسد (سيرين) النحيل عاريا وقد تحول لونه إلى زرقة الجثث المخيفة، واستحالت شفتاها للون أرجواني مقبض، في حين صار ملمسها باردا كندى الثلج، ومأواها بات في ثلاجة المستشفى المفزعة الملأى بالجثث! وهنا اكتشفت بأن قرار بقائي منتظرا الشرطة كان في غير محله على الإطلاق ...

خرجت من المستشفى ـ بالأحرى هربت منه ـ واستخدمت سيارة (سيرين) للذهاب ـ بالأحرى قمت بالاستيلاء عليها!ـ، بصري مرتكز على قطرات المطر المرتطمة بالزجاج قبل انزلاقها لأسفل، شعور بالغم انتابني وكاد بأن يثير غثياني، تمنيت الاستلقاء على سرير ولو كسجين كي أحدق بالسقف وأتوه في دوامة الأفكار حتى يغلبني النعاس ـ فيما بعد تحققت تلك الأمنية بحذافيرها!ـ، لربما ستكون حالي أفضل إذا ما استيقظت من نوم عميق مريح..

انطلقت في دروب أحفظها جيدا، فهي تؤدي إلى آخر مكان وددت أن أكون به حاليا لأنه يعني المتاعب، ومن بعيد لاحت أضواء السيارات، العديد منها حقيقة، وكأن ثمة حفل صاخب لمطرب شبابي.. بالفعل سمعت ضوضاء لدرجة صم الآذان لموسيقى راقصة.

وعندما اقتربت بالسيارة تمكنت من رؤية مئات الشبان والشابات للمرة الأولى أراهم هنا، حيث أخذوا يرقصون بانتشاء تحت الأمطار الغزيرة، بل ويشربون كذلك من عبوات لا أظنها تحوي عرق السوس!

هبطت من السيارة واخترقت بدوري الحشود قاصدا مدخل الفيلا وأعصابي تكاد تفلت مني لوضاعة وحمق ما يحدث هنا، وهنا وضع أحدهم يده على كتفي، نظرت فوجدته (وضاح) ابن الرجل المتشدد حاليا، ولاحقا المخنث الذي سيكمل عملية تحوله إلى أنثى كاملة كشرنقة الفراشة!

ـ "ما الذي تفعله هنا يا فتى؟"

ـ "أليست حفلة رائعة أيها الجنرال؟"

ولم يكف عن هز وسطه كالراقصة إلا حين أوقفته بيدي التي كدت أصفعه بها، ثم أزحته عن طريقي بازدراء كي أواصله..

دخلت الفيلا لأجد شبانا تجمعوا في تشكيلة قريبة من الدائرة تحيط بفتاة قصيرة الشعر ترتدي "جينزا" ضيقا ورداءا يفضح البطن والظهر، وقد ربطت وشاحا حول وسطها الذي أخذت تهزه بطريقة مهيجة وبارعة وسط أفواج من المصفقين على الإيقاع والمهللين!

كانت ذاتها الفتاة التي تظن بأن القط قد ينتحر لفشله في الحب، ومن الواضح أنها كانت تمتلك مهارات أخرى غير الأفكار الحمقاء..

(غسق) كان بالداخل ومعه خليلته الحسناء (ميريام)، يدخنان ويمازحان عددا من الرفاق، لمحني صديقي القديم أقترب مما جعل وجهه هاشا باشا، كأنه لا توجد سعادة تضاهي سعادته برؤيتي وهو يقترب مني بدوره، في حين ظلت (ميريام) واقفة على وجومها مني وتجهمها من ملاقاتي.. سألته:

ـ ما الحكاية؟ هل أعلنت "أوتوقراطيا" استقلالها؟

ـ حتى ذلك الحين دعنا ننعم بالانتصارات المجيدة.. سيجار؟

تنبهت للسيجار الغالي الذي يدخنه دون أن يسعل، كانت هناك فتاة فاتنة ترتدي ثوبا فاضحا شبيها بأرنبات "لاس فيغاس" وتقوم بتوزيعه من علبة فاخرة تحملها، فاستوقفها (غسق) ليناولني واحدا..

ـ "لم لا؟"

وقمت بتثبيته في فمي مدمدما:

ـ أريد التنفيس عن بعض ما يعتمر بصدري!

أخرج من جيب سترته الداخلي قداحته قائلا ببسمة:

ـ كن حذرا، المرة الأولى قاسية..

ـ إنك تخاطب مدخنا محترفا!

وأشعل لي طرف السيجار مواصلا التساؤل:

ـ وما الذي يعتمر بصدرك بالضبط؟ ما الهموم التي تبغي الخلاص منها؟ العمل؟ ألم أطلب منك ترك الهراء الذي تقوم به؟ بذل

جهد رهيب لإنهاء معاملات شركة تبخل عليك براتب منصف ومعقول؟ أخبرتك أن العمل الذي تنشده موجود، جهد أقل بكثير وبراتب خيالي يفوق التصور..

ـ شخص مقرب مني قد توفي اليوم..

حدق بوجهي مطولا قبل أن يسألني:

ـ من؟

جاوبته وأنا غارق في نوبة سعال محموم إثر النفس الأول:

ـ لا تعرفه، كان عزيزا عليّ جدا!

تأملني مليا قبل أن يسحب نفسا أخيرا من سيجاره ويلقيه أرضا ليهرسه بحذائه، وسار إلى حيث يقف موسيقار الحفلات الذي يعمل على تدوير الاسطوانات، فنزع أسلاك أجهزته لتتوقف الموسيقى بغتة، وكذلك الحضور عن الكلام والرقص وحتى عن الرمش، كأن الزمن ذاته قد توقف! تناول "ميكروفون" من على مكبرة صوت عملاقة، وقال عبره بحزم:

ـ عودوا لمنازلكم، فقد انتهى الحفل لهذه الليلة!

نال الاندهاش من وجوه الجميع، من ثم الأسى والتجهم، بعدها شرعوا بالانسحاب دون مناقشة.. غادروا مصابين بخيبة أمل كبرى، وقد راقني ذلك بشدة، لكن رأي (ميريام) كان مختلفا..

اقتربت منا لتقول بتوحش ونظراتها ترمقني بحقد:

ـ ماذا حدث هذه المرة؟

ـ ارحلي فهذا ليس من شأنك..

لم تحتمل أكثر فانفجرت صارخة:

ـ كل هذا لأجل صديقك المأفون هذا؟

إنه مجرد متشرد لا قيمة له!

خيل إليّ بأن عيني (غسق) قد اتقدتا.. رأيته ينقض على فتاته فيشدها من شعرها بقسوة، ويجرها إلى حيث طريق الخروج، كانت تصرخ كمن فقد ابنه أو عقله، ولم أحاول نجدتها، فقد رأيت بأنها تستحق ما هو أكثر من ذلك..

قام بدفعها للخارج وكأنه يقذف بكيس قمامة، وعاود الدخول كأن شيئا لم يحدث، في حين ارتفع صوتها في الخارج بثورة جنونية:

ـ ستدفع ثمن ذلك يا (غسق الغبرا).. أقسم!!

ثم رحلت مع البقية، فهدأت بذلك الزوابع أخيرا، نظر (غسق) لي باسما فتبسمت بدوري..

ناولني زجاجة عصير ليمون باردة وتناول مني السيجار..

سألني:

ـ وكيف مات؟

ـ حادث أليم.. لم يكن يستحق الموت!

ـ لم يكن يستحق الموت؟!

ـ معذرة، للبشر لحظات وهنهم أيضا، قصدت أن موته كان صدمة لي..

ـ يبدو أنك كنت تحبه كثيرا، الله يرحمه..

ووجم وجهه حين أردف:

ـ سامحني على ما حدث، إنها (ميريام) الحمقاء وطيشها المثير للغيظ، فقد أحضرت الجميع للاحتفال، ومع هذا كان من المقرر انعقاد الاجتماع الذي طالبت به الليلة في الأعلى!

ـ وصلتك رسالتي إذن؟

ـ ماذا أردت أن تقول؟

ـ مجرد فكرة حسبتها مذهلة، ثم نسيتها لما تلقيت النبأ المؤلم..

ـ يا للخسارة، ثم تحضر لتجدنا نرقص ونغني..

كم أنا خجل منك!

ـ لا عليك..

ـ أتعني أنك لست غاضبا؟

ـ ولماذا أغضب؟ دع الجميع يمرحون ويفرحون!

وأنهيت ما تبقى من العصير، فوضعت الزجاجة أرضا وأنا أسأله:

ـ أتريد مساعدة في تنظيف المكان؟

ـ غدا صباحا أرسل من ينظفه..

ـ إذن سأرحل الآن، عمت مساء..

ـ دعني أوصلك..

وذهب لجلب مفاتيح سيارته من فوق، فجلست على مقعد قريب لانتظاره.. للبشر لحظات وهنهم أيضا..

لقد شعرت بوهن عظيم اتجاه كل ما قام به (غسق) لأجلي، صديق يهتم لأمر صديقه لدرجة إلغاء حفل بأكمله وإغضاب صديقته

الجميلة، وعرض المساعدة دائما وأبدا، وأنا ماذا اصنع له بالمقابل؟ أقرر تدميره.. بالأحرى أقرر خيانته!

لماذا يجب أن تعود الأمور إلى نصابها كما كانت؟

كل هذا لأن من حاربوا كل تلك المظاهر الخادعة كانوا يرقصون ببهجة الشباب تحت المطر؟ أولم يكونوا كذلك دوما؟

ليست "أوتوقراطيا" سبب طيشهم، هم في الأصل بذرة فاسدة بذرتها أوقات فراغهم الضائعة ومتطلباتهم الباهظة، أما عنا نحن فقد قمنا بدفعهم لخوض معارك جهنمية، هدمنا بواسطتها أسس وبنيان الحياة المقبضة التي نحياها بمرارة، سواء أكنا من الفقراء أو من ذوي الدخل المحدود.. حتى وإن قاموا بمهاجمة مواقع "الإنترنت" بمجملها! فقد كانوا يستخدمونها دائما في الترفيه والخلاعة، مواقع دردشة وأغان بذيئة وألعاب.. من منهم نقب في مواقع الكيمياء أو الفيزياء؟ من بحث يوما عن موقع يتحدث عن الثورة الفرنسية أو عصر النهضة أو اعترافات (جان جاك روسو)؟

كان من الممكن الاستفادة من "الإنترنت" كثيرا، لكنه سرعان ما تحول لأداة لهو سخيفة بين أيادينا السمجة، كما الحال مع كل ما يصير بحوزتنا حيث نسخره لكل شيء عدا التعلم! لذا يتوجب علينا تصحيح الأوضاع بداية، نلتفت لأفراد جيشنا المشتت فنلملم أشلائه ونقوم بإصلاحه بتوجيهه، نغير نمط تفكيره بطريقة جذرية كي يصمد في معاركنا الهامة القادمة حتى النهاية!

*****

كنت أجلس بجوار (غسق) الذي قاد سيارته بترو غير معتاد.. سألني باسما:

ـ ما رأيك أن نتعشى معا؟

ـ لست جائعا إلى هذا الحد..

ـ أعرف مطعما ممتازا، دعنا نجربه..

ولشعوري بجوع شديد في الواقع فقد وافقت، هكذا اصطحبني إلى نفس المطعم الذي اشتراه (وضاح) فيما بعد، وأدخل عليه تعديلاته المزعومة قبل أن يديره كآنسة محترمة!

على ذات الطاولة التي بجوار النافذة جلسنا، كان النادل وقتها رجلا متبلد النظرات وذقنه غير حليقة، دفع لنا بقائمتي الطعام ورحل ريثما نفرغ من الاختيار.. سمعت صوت (غسق) يقول من خلف قائمته التي حجب بها وجهه:

ـ جرب الدجاج المقلي، فهو شهي للغاية..

ـ هل يقدمون حساء العدس؟ سأطلب منه أيضا..

وجاء الرجل ليضع على الطاولة قنينة ماء وكوبين، واستمع لطلباتنا قبل الابتعاد لتلبيتها..

قال لي (غسق) مقربا منفضة السجائر منه:

ـ هل علمت أنهم ألقوا القبض على (ناجي)؟

ـ رسام الشخصيات الكاريكاتورية؟

ـ هو بعينه..

ـ يا إلهي! علينا أن نساعده..

ـ قام والده بتوكيل محام بارع..

ـ ما الذي تقوله؟ ثم انه سيذكر الفيلا وأسمائنا جميعا، وأولها اسمي واسمك!

ـ هم بحاجة لكبش فداء فقط، والفتى سقط في قبضتهم متلبسا، كان يرسم أعمالا مسيئة للحكومة تحمل توقيع "أوتوقراطيا"، لم يكن حذرا بما فيه الكفاية، حاول التصرف بمفرده، فكان من الطبيعي أن يتمكنوا منه بتلك البساطة..

ـ ألسنا بمثابة منظمة قوية؟

ـ قوية بلى، لكنها ليست خارقة القوة.. ليس بعد!

ـ (غسق)، علينا مساعدته، لا يمكننا التخلي عنه بتلك البساطة المتناهية..

بدا مطرقا بالتفكير، ثم قام بإخراج سيجارة لعق طرفها ثم مررها أسفل ذقنه الخشنة ساهما.. أخيرا أشعلها، وحدق بي قبل إعلان ما توصل إليه: ـ لكل معركة ضحاياها!

لم يعجبني ذلك، فحاولت قول جملة تأنيب تردعه، لكن عقلي أنبأني بأن المجادلة معه لن تجدي نفعا، خاصة وأن الحق معه، فنحن لن نتمكن من فعل شيء للفتى البائس.. للأسف علمت فيما بعد من (غسق) أن نفوذ والد (ناجي) لم يكن من السعة بحيث يتمكن من نجدة ولده.. لقد سقط فتى الكاريكاتيرات بين كلابات الفولاذ بسبب حمقه وتسرعه، ومناقشة (غسق) حول الأمر ستكون جد عقيمة..

أحقا لا جدوى من مناقشته؟

ـ "ماذا لو سقطت أنت في قبضتهم؟"

ابتسم وهو يمتص عقب السيجارة، ثم همس واثقا:

ـ لا يمكنهم..

ـ لا يمكنهم أم لن؟

ـ كلاهما سواء! أنا القائد الأعلى، وتخليصي منهم سيكون مجرد مسألة وقت!

ـ تقصد أن أبناء أصحاب النفوذ العمالقة سيهبون لنجدتك..

لكن ماذا لو وقعت أنا؟ مجرد شاب عادي..

ـ لا تقل ذلك عن نفسك، وأنا لن أتخلى عنك أبدا..

ـ لكنك تخليت عن أحد رجالك المخلصين..

ـ اسمعني جيدا، لم يكن (ناجي) عنصرا فعالا في "أوتوقراطيا"، كان كأي فنان موهوب في أية دولة ذات قانون صارم، لو خالف القانون فستتم معاقبته بلا رحمة، كما أن استخدام نفوذنا لأجله فيه مخاطر قد تكشف الكثير من أسرارنا..

ـ إذن فتلك هي الحكاية! هذا خطأ فادح يا (غسق)، فمستقبل ذلك الفتى على المحك بسببنا.. لقد تصرف من منطلق الحماسة لأفكارنا النيرة، أي أننا كنا دافعه، فكيف نكافئه؟ نتخلى عنه في محنته!

ـ عليه بتحمل تبعات تهوره الأرعن، لهذا نملك عقولنا لأن علينا استخدامها!

ـ أتقصد تلك العقول التي تحسب القط يعاني الفراغ وقد ينتحر

بسبب فشله في الحب؟

وصل الطعام في تلك اللحظة، مما دعا (غسق) لأن يقول:

ــ لنأكل الآن وسنتحدث بالموضوع لاحقا..

كنت أشعر بجوع شديد يقرض أمعائي فلم أجادل أكثر..

شرعنا بالتهام الطعام الذي كان جيدا جدا، مقررا كل منا الاحتفاظ بأفكاره الخاصة لنفسه، أملا أن يكشفها أحدنا قبل الآخر..

ــ "ثمة عملية جديدة، أتود المشاركة؟"

ــ أنت تعلم إجابتي مسبقا..

ــ كيف وجدت الأوراك المقلية؟ شهية أليس كذلك؟

ــ رائعة..

ــ أرأيت؟ ذوقي لا يخيب بتاتا!

ــ ماذا عن العملية؟

ــ عدة عمليات في الواقع..

ــ ماذا لديك؟

ــ بضع أفكار جهنمية..

وضعت راحتي أسفل ذقني قائلا:

ــ أسمعني!

هكذا ابتدأت حملة معاكسة لإيقاف ما يحدث عن طريق الاتصال ك"فاعل خير" بأجهزة الأمن لإعلامها بما يقع، وأرسلت المحاذير عبر "الانترنت" والرسائل المنذرة عبر البريد، فتحولت بين عشية وضحاها إلى (يهوذا الإسخريوطي)!

الفصل الحادي عشر

عندما كتب (هربرت جورج ويلز) رائعته "آلة الزمن"، كان المخرف المبدع يتحدث عن انتقال شخص بماكينة ما إلى المستقبل متجاوزا حدود الزمن وخطوطه..

حتى علماء الفيزياء الجادون بحثوا في نظرية السفر عبر الزمن، أسموه بالبعد الرابع، إلكترون + بوزترون، تلاشي البوزترون لتصادمه بإلكترون.. ونسبية (آينشتاين) حول انتقال الزمن بصور مختلفة في عالم الأشياء التي ترى بالعين المجردة.. الخ

كان العالم اليهودي محقا في مسألة، وهي أن الانتقال إلى الماضي أمر مستحيل، لا يمكن السفر عبر الزمن إلى الماضي سوى بالذكريات والصور الملتقطة، أما السفر للمستقبل فأمر يمكن البت فيه.. على العموم كل تلك هلاوس علماء لا يجدون ما يمضون به أوقات فراغهم.. الانتقال عبر الزمن إلى المستقبل أمر غاية بالبساطة، كل ما تحتاج إليه العزم والإصرار، ومجموعة من الألواح الخشبية والمسامير ومطرقة و.. باب موصد بالأقفال من الخارج بإرادتك أو رغما عنك!

في خزائن ورفوف المطبخ جميع أنواع المعلبات، معلبات قد تكفي لعشر سنوات على الأقل، تونة، سردين، لحم أبقار..الخ، كل ما

يلزم لبدء الرحلة نحو المستقبل.. المسألة مسألة تخزين، لا تريد أن تقض جوعا وعطشا قبل رؤية المستقبل ومقابلة شخوصه.. ترى هل تأكد (غسق) من سداد فاتورة الكهرباء والماء؟ ثمة في أحد الأدراج احتياطي من الشموع ومولد كهربائي في حجرة التلفاز!

الكثير الكثير من الكتب، روايات ومجلات وجرائد قديمة، هل قام بإلغاء اشتراك الجريدة؟ يجب أن تنقطع عنك الأخبار تماما، يجب أن تكون وقع المفاجأة عليك كالصاعقة، من يدري؟ لربما تحررت فلسطين أو صارت دولة يهودية بالكامل، ولربما تصحو لتجد نفسك آخر عربي مسلم على وجه الأرض!

ولربما تصير "أوتوقراطيا" دولة عظمى حقا!

أدوية، الكثير منها، مراهم، مضادات حيوية، حقن وضمادات ومطهرات للجروح.. والأهم من هذا كله مخزون هائل لا يمكن أن تصدق وجوده من السجائر.. قد تهلك قبل رؤية المستقبل، لكن الأمر بحاجة إلى محاولة..

لقد قام (الغبرا) بسد كل النوافذ الخارجية بالألواح الخشبية والمسامير، النوافذ والأبواب مؤمنة جيدا، لن يسمح لأحد بالدخول، ولن يسمح لك بالخروج، ستكون المهمة شاقة ومتعسرة، لكن رؤية المستقبل تستحق ما هو أكثر..

تكتب رسالة إلى والدتك حيث تخبرها أنك مسافر إلى دولة نفطية ما سعيا للرزق، لا تكتب نداء استغاثة لأنهم سيشقون الرسالة حتما، ومن ثم تدسها أسفل الباب علًّ وعسى أن يترأف الطاغية

لحالك ويرسلها لوالدتك.. قد يكون هذا الوداع الأخير، فلا تترك العواطف تسيطر عليك..

أتراك نسيت شيئا؟

وهل تراك تملك الخيار؟!

*****

النوافذ مدعمة بالألواح الخشبية لدرء أذى أشعة الشمس الخبيثة، الضوء المقدس الباعث للحياة يجب ألا يمر..

بصعوبة يمكن تبين جسد يتحرك في أرجاء المنزل الكئيب والمعتم مقفل بإحكام كالحصن، وطواط آدمي، دب في بيات شتوي طويل، دب نحيل غزير الشعر قلما يستحم.. عندما بدأت فترة حبسي لم أسمع طرقات على الباب إلا مرات نادرة يمكن إحصاؤها على أصابع اليد الواحدة، كنت أرتجف، أنتفض..

ارحلوا! ارحلوا بعيدا ودعوني وشأني! عما قريب ستكبرون وسيكبر أولادكم، وسيتغير العالم الممل إلى الأحسن أو الأسوأ، وعندئذ سأخرج لأرى النور والحياة والتطور، سيكون ما أراه هو المستقبل!

سمعت طرقا على الباب فتجاهلته، مجرد هلاوس، اشتدت الطرقات إصرارا، فذهبت لاختلاس نظرة.. عين سحرية مكنتني من رؤية رجل يمضغ علكة ويضع يدا في جيبه بينما أمسكت الأخرى باقة من الورد! في السابق كنت أصرخ كالمجانين:

- النجدة!! أنا محبوس هنا!! أنجدني بالله عليك!!

وبعد أشهر قليلة بت ألصق عيني بالفتحة الضيقة، وأهمس بذقن نابتة وشعر كثيف وعبوس تام:

-يا للحمق! منزل محبوبتك يقع في طرف آخر غير هذا الطرف، وهي لا تريد الورد حتما، بل الحلي أو الجنس!

إما أن جدران المنزل عازلة للصوت، أو أنهم أتوا من طرف (غسق) لمعاينتي، ولربما لإثارة جنوني أكثر..

لا محاولات سرقة، ولربما صار منزلي أسطورة يتجادل حول صحتها طلبة مدارس الإعدادية.. ما حكاية ذلك المنزل؟ يقال أن قاطنه قد قام بقتل زوجته وأولاده في قبو مكتظ بالأدوات الحادة والسلاسل الفولاذية! حقا؟ وبالتالي حبس نفسه تكفيرا لخطاياه، حتى الشرطة تخاف من اقتحامه لإلقاء القبض عليه، إذ أن من يدخل لا يخرج أبدا، يتحول إلى جرذ تمارس عليه ألوان مروعة من التعذيب!

ذهبت للحمام كي أقض حاجتي، وبعد أن فرغت لم أغتسل، فقد كففت عن النظافة منذ مدة طويلة، لا نظافة من دون ماء، والمياه مقطوعة، إنها الخدمة السيئة التي يقدمها نزل (غسق الغبرا) للمجانين.. لمحت وجها أثار هلعي في المرآة، وجها كالكابوس، هذا وجه حيوان ميت، لقد فقد وجهي التعابير التي تخوله ممارسة حق الإنسانية، صار منحوتة شنعاء تمثل أسوأ الكوابيس!

كان أول ما تبادر لذهني هو مدى عزلة هذا الكائن الذي يقطن هذا المنزل.. غبار، غبار في كل مكان وبقعة وزاوية، علب طعام محفوظ، في كل مكان وبقعة وزاوية.. شباك عناكب.. رائحة خانقة..

هاتف لا يعمل.. جرس باب لا يعمل.. كهرباء مقطوعة.. مياه مقطوعة.. في كل مكان وبقعة وزاوية!

جرائد على الأرض التهمتها التهاما، كتب، مجلات، كلمات متقاطعة محلولة.. صوت طرقات من جديد.. ذات مرة نظرت من خلال العين السحرية، فأبصرت صبيا يحمل أوراق اليانصيب، لا نصيب الآن، ربما في المستقبل، أو الحياة الأخرى..

ـ "هل من أحد هنا؟"

تجاهلت العبارة وأنا أصب آخر ما تبقى من القهوة الباردة في قدح متسخ، تناسيت رؤيتي للصرصور الذي خرج من بقايا القهوة داخل قاع القدح قبل برهة.. ذات مرة نظرت من خلال العين السحرية، فأبصرت عاملا امتلأت ثيابه بالأصباغ، ربما كان يبغي شربة ماء..

ـ "هل هذا منزل (رجاء)؟"

اذهب! اذهب بعيدا، لا رجاء هنا، لا رجاء هناك، كفوا عن التناسل الحرام والحلال! كم كان (شوبنهاور) عبقريا في فلسفته!

أنت تقود ذاتك للهاوية، سيجارة جديدة، كيانك امتلأ سجائر.. رباه! شعور الدبق الأسود كالقار يملأ كيانك بأسره! شعور التعفن، العفن، صار الهواء فاسدا، الغبار، الفطريات عالقة بين أصابع قدميك، والرائحة بهيمية! أحقا يستحق المستقبل كل هذا العناء؟

لا إنسانية، لقد فقدت الإنسانية، صرت الكيان المتعفن المملوء بالأشياء الكريهة الفاسدة.. ما الذي دهاني؟!

ـــ "أنا أبدو كقطعة الأثاث المهملة التي ستحرق.."

وضحكت، لا بل بكيت، بكيت بحرقة، قهقهت.. المزيد من الطرقات.. اخرس وارحل من هنا! تبول على وردك وعدها بالحلي أو المعاشرة!

يستعدون للألفية الجديدة، عرفت هذا من الألعاب النارية ومن الوقت الذي رسمته بالألوان على الحائط، كل يوم يمر يمثل عظمة في هيكل، هيكل عظمي كامل يعني مرور سنة كاملة..

لا فارق، ألفية، ألفيتان، ثلاث، لا فارق..

إذن فهي الطامة الكبرى، ماذا قلت؟ الطامة الكبرى يا رجل! إن الاغتراب جحيم، والاغتراب في الوطن جحيم داخل جحيم، فما بالك إذا ما كانت غربتك أبدية؟

دعاء متضرع، لا استجابة، كإشارات (مورس) حين تعجز عن فك رموزها، الأكل وعدمه، الجنس وعدمه، الغناء وعدمه.

صح.. غلط..

سيجارة أخرى..

الفصل الثاني عشر

أسفل سريري وجدت مظروفا كبير الحجم.. انقضضت عليه وسارعت بفتحه، فوجدت بداخله أوراق رسم من الحجم الكبير وعيدان مصنوعة من الفحم! كانت هناك مفكرة أيضا من النوع السميك، والعديد من الأقلام، والأهم من ذلك كله رسالة..

قربتها من ناظري، فوجدتها تقول: ***"يمكنك كتابة مذكراتك في السجن كما صنع العظماء قبلك! ويا حبذا لو ملأت الأوراق بالرسومات، لأنها ستباع مستقبلا بمبالغ خرافية!"***

في كل مناسبة يحاول حثي على الرسم وبشتى الوسائل، لكن هذا لن يكون له أبدا..

وهكذا قمت بتناول المفكرة وواحد من الأقلام العديدة..

*****

("مذكرات سجين" بقلم: جنرال سابق)

الثاني عشر من يناير

عام جديد لي هنا كأول معتقل مناهض لحكم "أوتوقراطيا" الجائر.. يوما ما سيخلدني التاريخ.. الجنرال، أول من وقف في وجه الطاغية (غسق الغبرا) حاكم الدولة الأوتوقراطية، كما صنع (توماس مور) حين تحدى ملكه (هنري الثامن)..

لكن أتراني ملاق لذات مصير (مور) يا ترى؟

*****

الثالث عشر من فبراير

اليوم شعرت برغبة في أن أرسم قليلا..

استغربت الأمر لضجري السريع من الرسم، لكنني صرت اليوم لا أطيق الابتعاد عنه..

رسوم لأشجار وورود وجبال ووديان على غير عادتي، فقد اكتفيت من رسم المسوخ والشخصيات الكارتونية، إلا أني في أحد الأيام قررت رسم وجه لملاك يرفض الغياب عن ذهني رغم كل ما مر بي من متاعب وصعاب.. كانت عيناه مفعمتين بالغموض، إنفراجة شفتيه القليلة تكاد تنهكني لإجادته اصطناعها، رائحته العطرة لا تزال محتجزة داخل أنفي، وقوامه رشيق تستره خضرة فاتنة، ذكرتني بغزال متواثب في واد أخضر لا يصله مدنس أو زائر عابث..

لست بارعا في الغزل، وأعلم أن كلماتي باتت ذات استهلاك مكرر رغم ممارستي الكتابة أحيانا كثيرة، لكني لم أعد أملك سواها للأسف، ولربما صورة كاملة لوجه بديع في مخيلتي، ولخشيتي من عدم نقله للورق بأمانة تامة، فقد قررت صرف النظر عن التفكير بذلك الموضوع مجددا، فلأكتفي برسم الأشجار والورود والجبال والوديان إذن، ولربما غزال متواثب وسط ذلك كله!

*****

الرابع عشر من أبريل

زوار منتصف الليل هلوا..

وجوه أعرفها، ربما لا، يدخلون ويخرجون دون أن ألق لذلك بالا، يهيمون كالأرواح المنشقة عن الأجساد المتحللة في القبور..

ماذا يريدون غير تنغيص حياتي؟ أيحاولون تعطيل تجربة الانتقال عبر الزمن؟ لن ينجحوا في مسعاهم، ولكن قد ينجحون في إثارة جنوني.. لن أمكنهم، فعقلي يزن بلدا، وأعصابي هادئة لا تصلح للتلاعب بها، سأكمل تجربتي الإجبارية حتى النهاية، وسأنجح في الانتقال للمستقبل..

رأيت ظل شخص يمر كالطيف، فقلت بحدة:

ـ ماذا تبغي؟ لا تحاول فأنا لن أتزحزح..

خيّل إليّ أن الشبح قد توقف عن التحرك، وبتؤدة نظر باتجاهي، حدق في عيني، واستمر التحديق مطولا..

فكرت بالأمر قليلا، قد يكون الزائر شبحا بحق، لكنه شبح مسالم، قد يكونوا كلهم كذلك، وقد أتوا لمساعدتي على التحمل، بالأمس فكرت في الناس، في أشعة الشمس، في الحلويات الفاخرة، في النساء الجميلات.. ربما شعروا باشتياقي لكل تلك الملذات، فقدموا ليخففوا عني مشقة التفكير بالعذاب، ربما يريدون دفعي للنسيان والتركيز على تجربة الانتقال عبر الزمن، يجب أن تنجح! يجب أن نرحل للأمام، سيكون العالم مختلفا، ولربما تنتهي الحروب ويصعد العرب للفضاء أو يربحون كأس العالم.. من يدري؟

هكذا أطفأت سيجارتي في منفضة مكتظة، وبود لاح في وجهي الذابل غمغمت:

ـــ مرحبا بكم!

*****

الخامس عشر من أكتوبر

استيقظت من النوم، فوجدت نفسي على الأرض وبجوار زجاجة شراب نفدت من سائلها الخبيث..

وضعت أصابعي على مقلتيّ وفركتهما بشدة، ولما أزحتها وجدت صورة شبه مقوضة لكلب جالس أمامي مباشرة..

كان قبيحا، بني اللون، لكن تقاسيم وجهه بدت بشرية، كما أن لحية رمادية ضخمة خليقة بالبشر مزروعة أسفل أنفه!

ضحكت ثم تثاءبت.. ماذا يفعل هذا الحيوان البغيض الغارق فمه بالزبد هنا؟ يجب أن أطرده أو أقتله!

وبعد التمطي ومعاودة التثاؤب تساءلت:

ـــ من أنت؟

ـــ أنا (أرسطو)!

ـــ (أرسطو) من؟!

ـــ (أرسطو طاليس)!

ـــ (أرسطو طاليس)؟ ألا لعنة الله! ما الذي أتى بك إلى هنا؟

تنهد الكلب قبل أن يقول:

ـــ الزمن..

ـــ وهو الذي مسخك كلبا؟

ـــ أجل، الزمن قوي، جبار، تماما كالبحر، كالجبال..

ـــ أتلك هي أمثلتك عن القوة؟

ـــ أيوجد ما هو أقوى من الجبل والبحر؟

ـــ ليتك عشت لترى مدى قوة القنابل النووية!

ـــ لا شيء يزحزح الجبل من مكانه..

ـــ ألا رحمة الله عليكما يا(جاليليو) و(كوبرنيكوس)! لم يدمركما إلا أفكار هذا الجاهل! هل تعرف كيف تلعب الشطرنج؟

ـــ شطرنج؟

ـــ شطرنج، لعبة ذكاء..

ـــ أهكذا تضيع الوقت في المحبس؟ باللهو؟

ـــ كان هناك رجل عاش في النمسا حين اندلعت الحرب العالمية الثانية، عندما حبسه الرايخ الثالث وجد في زنزانته كتابا عن قواعد لعبة الشطرنج، قرأه الرجل، التهمه، وبقطع من الخبز والحساء تمكن من صنع أحجار ورقعة للعب، وبقى يمارس اللعبة حتى وضعت الحرب أوزارها وأخرجته المقاومة من المعتقل.. هل ظل كما هو؟ بالطبع لا، فقد صار ألمع وأمهر لاعب شطرنج، الأمهر على الإطلاق..

ـــ صار الأمهر في لعبة؟ يا لها من مضيعة للوقت!

ـــ يا لك من جاهل أحمق! تعال لأعلمك، هات الرقعة، لا، سأصف أنا الأحجار..

أنظر هنا، الجندي يتقدم خطوة أو خطوتين، الملك خطوة في أي اتجاه، والوزير في كل مكان..

ــ يا له من وزير متلاعب بمليكه!

ــ اسكت، والآن الفيل والحصان، الفيل يتحرك في خط مائل، والحصان يصنع حرف **L**..

ــ ولماذا **L**؟ لماذا لا يصنع حرف **N** مثلا؟

ــ كان يجب أن يسخطك الزمن حمارا لا كلب!

*****

السادس عشر من نوفمبر

مباراة الشطرنج بيني وبين (إبليس) كانت محمومة.. الرجل المخيف صاحب الجبهة العريضة، والهندام الحريري الأسود الأنيق، وطيلسان الخز على جبهته، لم يبد استسلاما من أي نوع.. قد كان جديرا بمنصبه حقا..

حرك بمخالبه السود قطعة الجواد الأسود ملتهما أحد جنودي، ثم تساءل ببسمة غامضة:

ــ ماذا يكسب الرابح؟

ــ التشفي بهزيمة الآخر!

ــ "يافيه"!

ــ ماذا قلت؟

ــ جميل بالعبرية!

ــ سأقدر لك حديثك باللغة العربية..

ــ أكره العربية فهي لغة القرآن!

ــ وسأكون ممتنا لو كففت ولو قليلا عن معاداتنا! أتمنى لو أنك تعادي اليهود كما تعادينا هكذا!

ــ لا أستطيع، كراهيتي للعروبة والعرب لا حدود لها! في جميع رحلاتي وحياتي التي امتدت قرونا طويلة اكتشفت مدى عمق كراهيتي لهم! العالم يتقاطر حماقة لأن اليهود يخدعه مائة مرة في اليوم! أنا أحب اليهود لأجل ذلك!

ــ لابد وأنك سعيد بهذه النتيجة!

أطلق فجأة ضحكة عابرة كأنما تذكر نادرة ما، فلوَّح بيده قائلا:

ــ ذكرتني بقصة طريفة حدثت لي.. عندما احتل (هتلر) بولندا! كنت قد ذهبت إلى هناك لتفقد الأوضاع عن كثب..

كان (هتلر) يكره اليهود مثلما تكره أنت مشتقات الألبان! لكن هذا لا يعني أنه سار على الدرب الصحيح، والدليل الخدمة الهائلة التي أداها لليهود كي يبتدعوا أكاذيب الهولوكوست، تلك الأكاذيب التي صدقها العالم فيما بعد بقدر غير هين من الغباء!

المهم، كانت قوات الرايخ تحاصر المدينة، دبابات النازي كانت تقصف المنازل، تسفك دم البشر..

كان هناك ذلك الطفل اليهودي الصغير، لم يطاوعني قلبي على تركه يسحق تحت جنازير الدبابات فأنقذته! ثم تمر الأيام والسنون، وأجد نفسي في فلسطين المحتلة، احتلها اليهود الأبرياء ضحايا المحارق النازية المزعومة..

كانت مفاجأة كبرى لي أن أجد الطفل اليهودي الذي أنقذته قد صار جنديا يحمل بندقية صوبها إلى رأس طفل فلسطيني قبل أن يضغط الزناد ويقتله بدم بارد! وقهقه بشكل هستيري، فحدجته بنظرة طويلة وباردة واضعا قبضتي على خدي.. يا للعين السخيف!

ـ "دعنا نرجع للشطرنج، ولنكتف باللعب أرجوك!"

ـ "لا بأس.. ها قد طار وزيرك فماذا ستصنع الآن؟"

ـ "لا تقلق.."

كانت عيناه مظلمتين مخيفتين، تحدقان بالفراغ الشاسع، فتأملتهما مطولا قبل نطقي باهتمام:

ـ هل لي بسؤالك عن شيء؟

ـ اسأل ما شئت..

ـ أصحيح تلك الحكاية المتناقلة عنك؟

ـ أي واحدة؟

ـ يقال أنك تمثلت لقوم (لوط) بصورة غلام أمرد جميل داعيا إياهم لارتكاب الفاحشة بك، ومذ فعلوها معك وهم يفعلونها مع الغلمان!

ـ صحيحة!

ـ قواد على نفسك؟!

ـ أنا شيطان، كذا دوِّن في خانة المهنة!

الفصل الثالث عشر

من أنا؟ من أكون؟ ما الهدف من العيش؟

أحان وقت الأسئلة الوجودية ذات الدلالات المتعسفة؟ أسئلة نفسية؟ اضطرابات.. هلاوس..

أم أترنم بأغنية: "حبيبتي من تكون"؟

أم أخرس فحسب؟

هل أتمكن من تجاهل الآلام الناجمة عن غرز نصل السكين في معصمي؟ هل أتمكن من تحمل لهيب النار المنبعث من القداحة؟

أم أخرس فحسب؟

هل أقرأ أم أؤلف أم أكتفي بالقراءة فحسب؟

سنة.. سنتان .. ثلاث سنوات..

معدل رقمي انقضى من العمر وأنا بين جدران أربع.. فهل أستمر.. أم أخرس فحسب؟

كانت قبضتي تهوي بكسارة الجوز على الجوز، تفتته، أتناول مما أهشمه فألقمه فمي المفغور، فتات، بصر لا يرى سوى الظلال، تلفاز يعمل عن طريق المولد، ظلال، لاشيء..

مذيع نشرة الأخبار يتلو النشرة بوجه عابس، يحدق في عيني وكأنها مباراة في التحديق، تحد لن أتراجع عنه، لقد قبلته..

أحدق، والمذيع يحدق.. آه! لقد هرب من الشاشة بحجة نقل مشاهد من مذبحة سخيفة.. دم، أطفال تحولوا إلى أشلاء.. وإن يكن؟ بصقت، فنظافة المكان لا تهم، لا شيء يهم، ثمة حريق في الصين، من يكترث؟ ثمة مذبحة أخرى في غزة.. من يكترث؟!

لقد ربحت المليون! لقد فزت بسيارة، ببيت، لا شيء آخر يهم! أنا! أنا! نفسي نفسي! الأنا هي محور الحياة! النفس! كل بغل على هذه الخطيئة المسماة أرض يظن نفسه المحور الأساسي، عصب الحياة.. مزيدا من الجوز؟ ولم لا؟

مزيدا من السقوط في جوف الهاوية؟ ولم لا؟

نفسي نفسي.. وهنا رميت الكسارة على شاشة التلفاز، هشمتها، أوقفت حرائق الصين وتدفق شلالات نياجرا والمذابح في الأراضي المحتلة برمية واحدة.. منتصف الهدف..

ضحكت ملء شدقي، وتمطيت، تثاءبت، قمت بما يتوجب عليّ فعله، ما فائدة تجربة عبور نهر الزمن إذا ما استمريت في حرق الأخبار؟ والآن حان الوقت لإيجاد فرص عمل أخرى، العالم مليء بالفرص، العالم جميل، كل مآسيه جميلة، القتل جميل، فاتن، القتل ألهم الفن بعشرات الأعمال الإبداعية، لولا القتل ما وجد الفن أصلا!

عمل فني..

تناولت كسارة الجوز، لا، لا تصلح، اتجهت للمطبخ، نبشت في الأدراج حتى عثرت على مطرقة كبيرة نوعا، بهذه المطرقة يمكن صنع عمل فني، تحفة..

مددت يدي، تأرجحت الأخرى في الهواء قابضة المطرقة بإحكام.. عمل فني!

صرخة مزقت الهواء، صرخة لها عواء الذئب! لقد تهشمت يدي اليسرى تماما بمطرقة صدئة! اليد صارت عجينا! بل استحالت تمثالا بشعا، لا بل جميلا.. عمل فني أصيل!

وفي الأيام القادمة سأتمتع بعدم جدوى استعمالها، سأتمتع بالعجز عن تحريكها واستخدامها في حمل الأشياء ونقلها.. رائع! عظيم! عمل فني! مدرسة السريالية التجريدية التجديدية المتخلفة! عمل فني يؤلم بحق.. لكن هذا يؤلم بشدة!

انتحبت بحرقة، نهنهت كالصغار، أنا نكرة! أنا لا شيء!

أنا كافر! أنا ملحد! الألم ليس من شيم الفرسان!

وبعد أن صرخت ألما كفاية وبكيت، تمطيت وتثاءبت..

من أنا؟ من أكون؟ ولماذا خلقت أصلا؟

لقد حان وقت الأسئلة الوجودية!

الفصل الرابع عشر

كائن مهشم بيد مهشمة، لا يتذكر كيف.. رقعة شطرنج ذات أحجار مبعثرة، علب طعام محفوظ فرغت من محتواها ومبعثرة في كل مكان، إرادة سهلة التحطم.. أريد الاستيقاظ من هذا الكابوس، كابوس شنيع، الحياة سهلة التدمير، تريد تدمير الحياة؟ بسيطة، تناول ورقة وقلم واكتب.. صداع! صداع رهيب! والمشكلة أن مخزون الأسبرين قد نفد، عليك بمحاربة الصداع، إنه مجرد صداع سخيف، أسلوب ضغط سماوي كي تجن.. الحياة نكتة سمجة، الحياة مؤسفة، علاقات غير متصلة، كيف يسمونها علاقات؟ لا أساس لها من الاتصال، علاقات متباعدة.. التلفاز تهشمت شاشته منذ زمن طويل، حتى أنك نسيت كيف، ادع ربك ألا يتعطل "الستيريو"، لا يمكن العيش من دون موسيقى، فهي تتركك دائم التعطش لأشياء مبهمة ومفقودة.. عيناك تدمعان، مخاطك يسيل، من أين لك الجرأة والإصرار للمواصلة؟ لقد نفد مخزونهما قبل فترة ليست بالقليلة..

لكن مهلا.. من قال أن التلفاز تهشم؟ إنه يعمل بكفاءة! وسيلتي الوحيدة لتتبع ما يحدث بالخارج قد عاودت العمل! وكأنه سحر..

كاميرات التصوير تدور لبث برنامج ما، ربما "توك شو"،

جماهير "الاستديو" تصفق بصخب وحماسة، إنهم يتقاضون رواتبهم بتلك الطريقة.. مع المذيعتين (نجوى) و(سلوى).. ككل سهرة ثلاثاء! رسمت (نجوى) ابتسامة آسرة على شفتيها القرمزيتين وهي تقول متحمسة كعادتها: أعزائي المشاهدين مساء الخير..

موسيقى تحفيزية وكأنه سيرك، و(سلوى) تعقب:

ـ سنبدأ البرنامج بخبر سار، لقد وافق ضيفنا المجنون (لؤي) على مواصلة تجربته المخبولة!

صفق الجمهور وهلل، فأطلقت ضحكة مندهشة، إنهم يتحدثون عني! يا لهم من حفنة مخابيل! (لؤي)؟ أهذا أنا!

أحقا هذا اسمي؟ أم تراه (سالم)؟

(نجوى) تضع ساقا على ساق فوق كرسي طويل ودوار:

ـ مشاهدينا الأحباء، وصلتنا عشرات الفاكسات والمساهمات من أصدقاء البرنامج، وكلها تتحدث عن مدى إصرار (سالم)..

ـ بالفعل! وقد رفض (جرير) الإدلاء بتصريح لبرنامجنا بادئ الأمر.. يبدو وأن معنا اتصال.. آلو؟

لحظة صمت وكأنها دقيقة حداد، وأنا أواصل الضحك، الترقب باد على الوجوه..

ـ "آلو؟"

ـ "يبدو وأن الاتصال قد انقطع.."

صحت: العقلانية عن رأسي انقطعت!

ـ آلو؟ المخرج يشير لنا بأن ثمة اتصال آخر..

وأخيرا: ـ "آلو.. كيف الحال؟ أريد التحدث عن تجربة (عمر) العجيبة، وأريد القول بأنها مثيرة وموحية لنا جميعا! لقد فهم جانبا من الضعف البشري وحلله بطريقة عملية للغاية، وأرى أن نستفيد من ذلك جميعا! يبدو وأن لدينا معجب هنا! كيف الطقس عندكم؟

ـ حار قليلا، ممكن أهدي؟

قهقهت بارتياع، رسم الفزع صورته على حاجبي، لقد جننت! الكل على الشاشة يضحك ضحكات بلهاء، و(نجوى) تقول مؤشرة بسبابتها اتجاه الشاشة:

ـ لا تذهبوا بعيدا، بعد الفاصل سنلتقي أخيرا أسطورة الخبل والمخبولين! الرجل الذي عبر نهر الزمن في رحلة أوديسية للمستقبل، تلك الرحلة التي تمخضت عن رأس فارغ مليء بالترهات!

ـ "ترهات يا بنت الـ..؟!"

تناولت كسارة الجوز، هويت بها على شاشة التلفاز وأنا أصرخ، الشاشة لا تتحطم، وكأنها مصنوعة من زجاج مضاد للرصاص، فتركت الكسارة وشرعت بهز الجهاز الملعون بيدي..

ـ "معنا اتصال آخر.. آلو؟"

ـ "موتوا!!! احترقوا!!! اخرسوا!!!"

ـ "آلو؟"

ـ "اخرجوا من رأسي أرجوكم!!"

وهنا تبدى انفعال شديد على وجهيهما، وصاحت إحداهما وهي تتواثب فرحة: أعزائي المشاهدين إنها من أكثر المناسبات ندرة، ملك

المخبولين شخصيا على الهواء، الجنرال (عبد الرحيم)! حيوه!

تصفيق رجَّ أرجاء "الاستديو"! فتوقفت عن رج الجهاز محدقا بالشاشة باستغراب سرعان ما انقلب إلى هلع..

ـ "جنرال (سعيد) كيف حالك؟"

حدقت بالشاشة مطولا قبل صراخي: تبا لك! تبا لكم!

الجميع يصفق، يهلل، (سلوى) تقول ضاحكة:

ـ عجبا، الرجل لا يزال صامدا!

ـ إنها مسألة وقت قبل أن يجن كليا!

ضربت الجهاز بقبضتي وأنا أنوح: اخرجوا من رأسي! سأرى المستقبل رغما عن أنوفكم جميعا!

تصفيق، ضحك، تهليل، (نجوى) تؤشر بإبهامها مجددا قائلة بنبرة تشجيعية: بكل تأكيد! وعندما تفعل ستكون جائزة البرنامج بانتظارك! وظهر على المسرح رجلان يدفعان بسرير مزود بقيود جلدية! في حين صفقت (سلوى) جذلا وهي تهتف:

ـ حجز جديد لرؤية المستقبل! لكن داخل أفضل المصحات المعدة خصيصا للمجانين الخطرين!

ـ حظا موفقا!

وهنا حملت التلفاز ورميته بكل قوتي عرض الحائط، فتحول إلى قطع متناثرة هنا وهناك.. لكن ذلك لم يمنعني من سماعهما وهما تصيحان كالممسوستين!

الفصل الخامس عشر

شعور مبهم اكتنفني وأنا أنظر للضوء المنبثق من العالم الخارجي، بدا ساحرا، خلابا، يمتلئ بالهواء والطاقة والكائنات الحية الطبيعية.. ثم نظرت للخلف فاعترتني قبضة، جاثوم كتم أنفاسي وأنا أتشمم للمرة الأخيرة رائحة العطن الشبيهة بالموت.. نوع من الخدر اللذيذ سرى في عروقي لما قارنت بين السجن الذي خلفته ورائي والحرية التي أنظر لها الآن ملوحة لي مرحبة..

هل فتحوا الباب وأنا نائم؟ لا يهم! لا يهم! المهم أنه مفتوح الآن.. تحركت أخيرا.. بادئ الأمر طفقت أمشي مشيا حثيثا كأنما أخشى أن يباغتني أحد فيسلبني حريتي التي انتظرتها طويلا، وهو ما لن أسمح بحدوثه أبدا.. فليأخذوا روحي، لكنني لن أعود للداخل أبدا!

ثم شرعت أهرول.. في داخلي نشاط ما يترعرع..

وأخيرا انطلقت راكضا.. ركضت وأنا أنصت بخوف لصوت تردد بداخلي: اركض! اركض وكأن أباليس الأرض تركض بأسرها في أعقابك أيها المخبول!

إنك لن تتخاذل اليوم أبدا! ستستعيد حياتك من جديد، لن تسمح لحفنة من الهلاوس أن تقرر مصيرك، اليوم سنحت لك الفرصة كي تثبت أنك لست سهل المنال!

كان الأمل الجنوني يتواثب في صدري كلما تباعدت المسافة بيني وبين الدار البغيضة.. الحرية باتت وشيكة! صحيح أني خرجت، لكنني بحاجة للتأكد أكثر..

وأخيرا توقفت عن الركض المحموم.. أخذت ألهث دون توقف.. لقد كسبت السباق! أنا حر! حر كالطير المهاجر أخيرا!!

ــ "لا تكن متسرعا يا جنرال.. فظنك للأسف في غير محله!"

ميّزت الصوت على الفور، لم أنسه أبدا، قد كان صوت (غسق الغبرا)!! انقبضت أمعائي مستديرا بسرعة البرق لمواجهة محدثي الواثق.. لكنني ــ ويا للغرابة ــ لم أجد كائنا حيا واحدا من حولي.. لم ألمح سوى فراشة ملونة محلقة، تبدت في ناظري كرمز للحرية..

*****

ــ "سأخبرك عن الإنسان، والإنسان العربي تحديدا، وفي هذا الزمن بالأخص.. إنه شخص أناني نسي حماية الأهل والعرض والكرامة منذ زمن، يعارك عراك الديكة للاشيء، تماما كالطفل المتشبث بلعبة يكرهها ويكره أكثر رؤيتها في يد غيره، ينظر للأمس واليوم والغد بذات العين الخانعة..

ماذا يعني أن اقتصاد اليابان أقوى بمراحل من اقتصادنا؟ ماذا يعني أن الهند وباكستان وإيران سبقتنا إلى التسلح النووي؟ ماذا يعني أن أمريكا وروسيا اقتحمتا عوالم الفضاء بلا هوادة؟ ألسنا نحن من منحهم العلم عندما كانوا غارقين في دياجير الجهل والتخلف؟ بهذه الطريقة يعلن السمو الأجوف، غير عالم أن الغرب

كله ينظر إلينا مستهزئا وهو يقول في سره: إن هؤلاء العرب الحمقى لا يساوون ثمن قمامة من الأرض التي يتناسلون عليها!

إن عربي هذا الزمان يخدع نفسه ظانا أنه متمكن من الآخرين! وحين سمع الحمار عواء الذئب لاك العشب بين ضروسه مرتخيا قائلا لنفسه: ما هذا إلا صفير الزمهرير! ولم يدرك التعس حجم الخطأ إلا حين صار وجبة عشاء دسمة!"

أطفأت التلفاز مستعملا جهاز التحكم عن بعد، و تناولت نفسا من سيجار فاخر، كنت ممددا على سرير مريح داخل حجرة مرفهة في فندق باهظ، استخدمت ما ادخرته لدفع ثمنها..

رقدت على ظهري متأملا الثريا الجميلة وغمغمت: على الأقل صارت لدينا ثلاث دول نووية رغم أنها ليست دولا عربية!

حجبت بصري بساعدي مفكرا، إذن فالوضع العربي على ما هو عليه، ضحك على الذقون، يا للسخرية!

الوضع العربي الراهن أتى لكي يبقى، لن يتغير أبدا، ماذا كنت أتوقع؟ أمة عربية موحدة؟ حرب التحرير الكبرى؟!

لقد انضمت العراق لفلسطين، وسوريا باتت مهددة، لا جديد سوى أحداث ١١ أيلول، وتسلح إيران النووي الذي يهدد أمن أمريكا المزعوم، ناهيك عن رئيسهم الأخير الذي يفوق والده حماقة!

لكن العالم لا زال على حاله..

المهم أنه لا يزال على حاله..

*****

في مطعم الفندق طلبت وجبة غالية الثمن من أشهى المأكولات البحرية.. أكلت كما لم آكل من قبل، الطعام كان شهيا، له مذاق الحياة، الناس من حولي يأكلون ويتحادثون، وأنا آكل وأراقبهم طيلة الوقت بتلهف، يجب أن أنضم لمجتمعكم! يجب أن أنضم لركب الحياة من جديد!

بعد الطعام طلبت للتحلية "آيس كريم" بالفانيليا.. مذاقها البارد والمنعش أشعرني بنشوة لا حدود لها، حتى كدت بأن أذرف الدمع! لقد كادت ذكرى تلك المتع أن تتلاشى من ذهني تماما..

كان هذا عندما اندفعت سوائل عصارتي لفوق، وانطلق القيء عبر فمي كمدفع رشاش مغرقا الطاولة والأرضية المغطاة بسجاد فاخر، ووسط صيحات الناس المذعورة!

*****

تعلق بصري بالشاشة العملاقة وقد جحظ بصري جحوظا مبينا انبهارا بما أراه.. لقد تطورت صناعة السينما كثيرا! المؤثرات البصرية باتت واقعية أكثر من ذي قبل! المخلوقات الفضائية أصبحت حقيقة لا مجال للتشكيك بوجودها! أتراهم زاروا الأرض أثناء فترة حبسي وعقدوا هدنة مع سكانها من البشر؟!

تذكرت حكاية وقعت في أمريكا عن هروب المشاهدين من صالة السينما عندما عرض فيلم "سرقة القطار الكبرى" للمرة الأولى.. كان هذا ما كدت أصنعه بالفعل عندما شاهدت المركبة الفضائية العملاقة تزور الأرض! يا للمشهد المهيب!

في تلك الليلة شاهدت ثلاثة أفلام دفعة واحدة، السينما جعلتني أعاود الثقة والتفاؤل بالمستقبل، لقد غبت فقط لكي أرجع وأشاهد إبداعات الفن السابع وتطوراته المذهلة..

وعندما هممت بالمغادرة، فكرت بولوج فيلم عربي لمشاهدة التطور الهائل الذي حققته السينما العربية.. فوجدت البطل نابت الذقن مليء البطن، يرتدي فانلة داخلية ملوثة بالعرق، ويزعق لأقل سبب، مواصلا رحلة البحث الأزلية عن غرفة فوق السطح بإيجار يناسب دخله المحدود، تؤويه هو وزوجه وعياله!

*****

في متجر للملابس اشتريت حلة زرقاء أنيقة وربطة عنق عنابية، كما ابتعت حذاءا فاخر الجلد، وساعة "روليكس" فضية غالية الثمن، وحقيبة زيتونية اللون من جلد التماسيح! أردت أن أبدو من سكان هذا العالم الجديد، أن ألجه بثقة وشمم.. وقد زرت طبيب أسنان قام بحشو أضراسي الملوثة بالسوس واقتلاع تلك التي نخرها، لقد كاد ألم الأسنان أن يدفعني إلى الانتحار.. بعدها ابتعت نظارات طبية جديدة من النوع المظلل..   في محبسي كنت أقرأ في الظلام على ضوء الشموع، قرأت كثيرا جدا مما أدى إلى تضرر بصري المتضرر منذ البداية.. زرت المكتبات العامة لإلقاء نظرة عليها فقط، فلم أكن مستعدا لمزيد من القراءة، إجازة القراءة الطويلة انتهت، والآن لن أجلس لمجرد تصفح كتاب..

*****

على الشاطئ الرملي تمشيت بقدمين حافيتين، معلقا البدلة على ساعدي، وممسكا بيد حذاءي وباليد الأخرى حقيبتي الزيتونية التي لم أفارقها منذ اشتريتها..

هل يزور السجين الذي انقضت مدة سجنه البحر؟

لابد وأنه يفعل، لاشيء يشعرك بالحرية قدر رؤيتك للزرقة العجيبة مترامية الأطراف، تنظر فوقه، تطيل النظر، تغوص بعقلك تحته، تتمنى العيش هناك مع الأسماك والشعب المرجانية..

حتى الهواء غير الهواء، لا روائح كريهة، لا جرذان، لا صراصير، لا عفن، لا نتانة من أي نوع مقيت.. هذا هو البحر! كالحلم، فضاء مستقل بذاته.. أحببت رؤيته وحيدا من دون بشر عراة يشوهون شاعريته، البحر خلق للعشاق والتعساء سواء، لا للهو والسباحة ولعب الكرة واصطياف النسوة اللواتي لا يملكن هدفا سوى تسمير بشراتهن..

في الأساطير الشعبية الأوروبية القديمة ما يسمى "دراك"، وهي روح بحرية شريرة تغري النساء بالتمثل في أشكال حلي ثمينة، فإذا حاولن التقاطها سحبتها تلك الدراك للأعماق حيث يقضين غرقا..

(كاتيا) أخبرتني بذلك، أقصد في روايتها الغريبة، و(كاتيا) الجميلة كانت تسير في ذلك اليوم مثلي حافية القدمين على الشاطئ المنعزل، تخوض بقدميها الدقيقتين المياه المالحة تارة، وتارة أخرى تلفهما بالرمال مغلفة إياهما بجوارب رملية رقيقة..

كانت ساحرة، كل شيء بشأنها ساحر، في عينيها رأيت زرقة

البحر نفسه، وفي قدميها أبصرت دقة في الصنع وكمالا يجعل الأنفاس تتلاحق..

(كاتيا) الرقيقة الدقيقة، كالدمية، من هي؟

من تكون؟ من أين أتت؟

ثمة ركن منزو منسي من ذكرياتي المهملة حاولت استرداده بشأنها، لكني عاجز كل العجز عن ذلك.. لا أتذكر سوى مفردات مبهمة.. قدح شاي.. "كعكة العليق الرمادية".. فستان أزرق ــ أم تراه أخضر؟ــ إذا أردت التأكد من أن فتاة أحلامك ليست مجرد شبح هائم، ابحث عن الظل! فإذا لم يكن موجودا صارت الحقيقة أقوى من أشعة الشمس اللافحة..

و(كاتيا) كانت تتمشى من دون ظل!

قالت لي وبصرها مسلط على زرقة البحر:

ــ البحر هو أجمل ما في الدنيا!

بقيت صامتا، ولا كلمة، ولا همس، ولا نفس، شعرت بموتي وأنا حي، و(كاتيا) كانت حية رغم أنها ميتة في خيالي..

نظرت لي باسمة، فابتلعت ريقي وكأنها ألقمتني حجرا، وبعينين مغمضتين غمغمت: لماذا تظهرين لي، لماذا تظهرون لي دائما؟

ما الذي تريدونه مني؟

تجاهلت تساؤلاتي ناظرة للبحر من جديد، صمت احتوانا كأنه مبارزة جديدة فيما بيننا، كالعادة الذي ينطق أولا هو الخاسر.. وظللت أخسر وأخسر، صوتي يرتفع ويحتد وهي صامتة باسمة..

لهثت، انهرت، بكيت، لكنها تجاهلتني مظهرة لامبالاة باردة كالصقيع، ومن ثم قالت:

ـ بل إن أقوالا في المسيحية تسربت محدثة عن قدوم المسيح (يسوع) على صورة دولفين! فهم يعتقدون بقيام الدلافين بحمل أرواح الذين غرقوا في البحر على ظهورها!

ـ كفانا حديثا عن أرواح البحر أرجوك!

ـ أيرعبك الحديث عنها إلى هذا الحد؟

ـ لا أحاديث عن البحر، لا أحاديث عن أرواحه، لا أريد سماع شيء!

ـ أنا أنتمي للبحر.. فقد اخترته فيما مضى كي يصير مثواي الأخير!

كانت ركبتاي مدفونتين في الرمال، دموعي تسيل من أسفل نظاراتي.. اقتربت بتؤدة، هبطت على ركبة واحدة، ومسحت لي بعض الدمع بإبهامها الطري، و بهمس ساحر خاطبت أذني:

ـ وأنت! أنت كذلك تنتمي للبحر!

أنا كذلك أنتمي للبحر! أنا كذلك أنتمي للبحر!

أقف، أخطو باتجاه المياه مدندنا لحن أغنية.. البحر مكان مناسب للسكنى، البحر أفضل مكان للاختباء من قاذورات البشر..

أنا أنتمي للبحر..

*****

أنا لا أنتمي للبحر..

أنا أنتمي لسرير شدَّت أطرافي الأربعة إليه بأربطة جلدية، ملابسي الأنيقة صارت بيجامة مستعملة، وأمامي يقف رجل لا أجد وصفا له سوى الشبه الكبير بينه وبين د.(سترانجلوف)! مع مشكلة تسرب اللعاب من ركن فمه..

يقول (فرويد) الخاص بي مبتسما بسمة صفراء:

ـ أرى أنك تحرز تقدما! لقد صرت أفضل حالا اليوم!

ـ أين أنا؟

ـ في المستشفى..

ـ أي مستشفى؟

ـ لقد كدت تغرق يا سيدي..

ـ إذن لم أنا مقيد؟

ـ إجراء أمني لضمان سلامتك..

ـ كفٍ عن المراوغة.. لقد حاولت الانتحار، أليس كذلك؟

ـ أجل..

ـ يا للعار! يا للخزي!

ـ أهي حقا مشاعرك الحقيقية؟

ـ أخرجني من هنا أرجوك، أريد رؤية المستقبل!

ـ المستقبل؟ ما الذي تريد رؤيته بالضبط؟

ـ العالم! الأحوال، السياسة،

لابد وأن السيارات باتت تطير الآن!

ضغط زر قلمه الحبر مجيبا بسماجة:

ـ أكره تخييب أملك، لكن كل شيء لا زال على حاله..

رمشت بعيني مبتسما.. كل شيء لا زال على حاله.. أعلم أن كل شيء لا زال على حاله، ولكن هل يصدقني عقلي؟

سجّل الطبيب شيئا في ذيل الورقة الصفراء المعلقة بمشبك، ثم ضم اللوح الذي رقدت عليه الورقة إلى صدره قائلا بجدية:

ـ والآن أطلعني على حالك اليوم، أتشعر بأي ألم؟

ـ آلام!

ـ أين؟

ـ في كل موضع..

ـ لا بأس، سنعالجك، ثق بنا!

أطلقت ضحكة أسى، وبريق جاف تمتمت:

ـ لقد حلمت ليلة أمس..

ـ بماذا حلمت؟

ـ بأن سيارة دهستني صانعة من عظامي ودمي مزيجا..

الفصل السادس عشر

في زاوية "الكافيه" شبه المعتمة تجدني.. لم يكن هندامي لائقا بالمرة، وذقني حملت أشواكا قاسية غزيرة.. لكن من يأبه بحق الله؟!

المكان هادئ على غير العادة، خال من رواده الذين ألفتهم سابقا، هناك امرأة بدينة مدخنة، ورجل عجوز نحيل يتصفح جريدته، والعاملين هنا فحسب.. جاء أحدهم ليضع ما طلبته أمامي، قدح شاي إنجليزي خفيف، وقطعة من.. كعكة العليق! على سبيل التغيير!

اقتطعت بالشوكة البلاستيكية البيضاء قطعة بسيطة تذوقتها بحذر، شعرت أني غير واثق تماما، مما اضطرني لتذوق قطعة أخرى.. طعمها رائع حقا! أكاد لا أصدق مدى روعة طعمها، مزيج من الجودة واللذة معا!

قال لي النادل الذي يعمل هناك وهو عاكف على تنظيف طاولة أخرى:

ـ افتقدناك! أين غبت كل تلك المدة؟!

ـ في المصح العقلي!

والتفت إليه مسترسلا بجفاء وفتات الكعكة الشهية يتساقط من فمي:

ــ يحسبونني مجنونا.. تصور!

ابتسم كما لو كان يهنئني على تلك الطرفة، وعندما وجدني أتحدث بجدية سألني باهتمام:

ــ أحقا قاموا باحتجازك في مصح؟

ــ أجل، أنا لا أمزح..

ــ ما الذي ارتكبته؟

ــ قلت ما أغضب أحدهم..

ــ فقط؟

ــ كانت كلمة حق، صدق أو لا تصدق..

ــ ولم لا أصدق؟ كل شيء ممكن في زماننا الأغبر هذا..

تنهدت وأصابعي تداعب البخار المتصاعد بهدوء من قدح الشاي، في حين وضع هو يده على كتفي قائلا بتقريرية:

ــ لذا.. يتوجب عليك أن تصير أوتوقراطيًا!

وعاود الابتسام كطفل بريء مسالم!

ــ "ماذا قلت؟"

وراقبته كما لو كنت أتأمل معتوها، فأردف:

ــ إن "أوتوقراطيا" بوابة مفتوحة على مصراعيها لاستقبال جميع الآراء مهما كانت منفرة!

ــ هل تمزح معي؟!

سمعنا في تلك اللحظة صوت المرأة البدينة يرتفع قائلا بخشونة ممتزجة بالسعال:

ــ أين القهوة التي طلبتها منذ نصف ساعة؟

ردَّ عليها النادل بفظاظة:

ــ اخدمي نفسك بنفسك يا امرأة، ألا ترين أنني مشغول؟

ظهر الاستياء على وجهها قبل مسارعتها بتناول حقيبتها والنهوض مغادرة المكان، فالتفت إليّ قائلا بمرح:

ــ أترى؟ نحن نعمل الآن وقتما نشاء ونحصّل أجورا عادلة، أليس هذا أشبه بالحلم؟

بل بالكابوس المروع! كابوس يصعب تصديقه.. كنت أنظر إليه مبتسما كالأبله، عندما نهض العجوز تاركا جريدته على الطاولة وهو يخاطبنا بقوله بنبرة شديدة اللهجة:

ــ جيل ملعون، يسعى للخراب والفوضى بقدميه!

وفي اللحظة التالية كان جميع العاملين بالكافيه يرشقون الرجل بقوالب "الجاتوه"! فرفع ذراعيه لدرء الأذى عن وجهه، وصرخ قبل أن يلوذ بالفرار:

ــ يا أوباش!! تبا لكم من جيل!!

ــ الوداع يا جدي!

وضحك الجميع سعداء فشاركتهم الضحك.. لقد جننت حتما!

سألت النادل مقاوما رغبة البكاء الشديدة:

ــ ما الذي يحدث هنا بحق الله؟

ــ الحرية يا صاحبي، تحررنا من قبضة الروتين أخيرا! يمكنك اليوم صنع ما تشاء بلا قيود أو ضغوط، اعمل وقتما تشاء وكل

ما تريده ونم بأي وقت وفي أي مكان!

هتف نادل ثان:

ـ واذهب لكل مكان تريد رؤيته، وقل كل ما يخطر ببالك دون خوف من أحد!

وصاح ثالث:

ـ نحن ندين للقائد البطل (غسق الغبرا) بكل ذلك، فهو الذي حررنا من عبودية الاستغلال والقيود والفواتير والرسوم!

وانتابتهم حمى الحماسة لدى ذكر اسم (غسق)، فأخذوا يهللون ويهتفون لأجله عدة مرات حتى أوقفهم أحد العاملين، إذ صاح بأعلى صوته وهو يرفع مذياعه الصغير الذي كان ينصت إليه:

ـ يا إخوان، ثمة احتفال ضخم سيقام الليلة وسط المدينة، رقص وغناء وفتيات راقصات حتى مطلع الفجر!

ـ هلموا بنا إذن!

وهرعوا معا على عجل، فتركوني وحيدا في "الكافيه"!

ـ "تدينون لغسق الغبرا؟!"

رمقت المكان من حولي كمغفل حقيقي قبل سؤالي نفسي مرة ثانية: أتراه نجح في مسعاه؟!

لمحت الجريدة التي خلفها العجوز النحيل، فسارعت لالتقاطها بفكر مشتت، جرت عيناي على عناوينها الرئيسية التي زادتهما حملقة واتساعا، وأكثرت من محصول الأسئلة في رأسي بدل منحي أجوبة شافية: "هل بدأت علامات قيام الساعة الكبرى بالبزوغ؟"

عجلت بمغادرة المكان، وقد لاحظت خلوه المريب من الناس، لابد وأنهم الآن في ذلك الحفل وسط المدينة..

لمحت واجهات زجاجية مهشمة للعديد من المحلات، مما جعلني أتوجس خيفة أثناء مغادرتي للمبنى.. خرجت إلى حيث مواقف السيارات فوجدتها فارغة، وسرت حتى الطريق العام مفكرا فيما يحدث من جنون.. لقد جن الجميع بالفعل! تقول الجريدة أن المصانع باتت متوقفة الآن، والحكومة تحاول إرضاء الناس بشتى السبل، البنوك صارت بلا جدوى، وكبرى الشركات باتت مفلسة!

توقفت فجأة، ثم وبخطى حثيثة اقتربت من أحد الأرصفة ويدي تقبض شعري بقوة.. هل سبق لك أن شاهدت تلك اللوحات الإعلانية العملاقة التي تظهر عارضات أزياء حسان لعرض سلعة ما؟ تلك التي شاهدتها معلقة في كل مكان كانت غريبة بعض الشيء، فجميعها تصور فتاة حسناء تراقبك بغموض وهي مرتدية ثيابا داخلية سوداء، وبالأسفل بين فخذيها عبارة تقول:

"إن أوتوقراطيا هي المسئولة عن نشر الظلام الحالك..

اليوم تجدنا في أي مكان، غدا تجدنا في كل مكان!"

كالأخ الكبير في رواية (جورج أورويل)!

ككابوس من كوابيس (كافكا)!

كأن عقلي قد تحلل! والجنون هو حلي الوحيد كي لا أقتل نفسي.. جلست أسفل الإعلان الفاضح مقررا أن أجن، فقمت بمخاطبة نفسي كما يصنع أي مختل عقلي..

قلت لها بعيون استحالت زجاجا لا يبصر:

ـ أيعلم أعداؤنا في الخارج بما يدور هنا من جنون؟ أتراهم يتأهبون في هذه اللحظات للانقضاض علينا؟

أكاد لا أصدق ما حدث.. وصل إلى مسمعي صوت موسيقى مروعة لا يسمعها سوى مخبول، وأصوات لسرينات المطافئ أو لشرطة النجدة، كأن ثمة مظاهرات عنيفة تدور، أو أن حوادث مريعة تقع.. لكن وقوعها ضرب من ضروب المستحيل، فهذا الواقع كما نعرفه! بمرارته وجفائه وصعوبته وبكل ما نعرفه عنه وندركه، مقاومين باستماتة وقوعنا فريسة مشلولة لإرادة من فرضه علينا كي يظفروا هم بنعيم الدنيا ويدعوننا نراه، فنتمناه بدورنا دون أن نستطيع إدراكه! أما ما يحدث اليوم فهو كارثة مدمرة! غدا نصير بلا قانون يحمينا، فنقتل ونسرق من ومتى نشاء كي نلاحق خيرات الأرض الزائلة التي صارت في الشوارع، فنستنفدها حتى آخر قطرة من زجاجة مياه غازية! سنعود إلى عصور البربر المتخلفة، فنقتل من أجل لقمة نسد بها رمقنا، وسيأكل القوي الضعيف حقيقة لا مجازا كما هو موثق في شريعة الغاب.

ولا يمكنني تصور مستقبل أكثر إشراقا من الذي ينتظرنا إذا ما دامت الأمور على تلك الحال الجديدة المروعة!

وهل سأظل جالسا هكذا حتى ذلك الحين؟ ألست أحد أهم أسباب الدمار الذي حاق وسيحيق شاقا دربه بعنف وطيش؟ ربما يتوجب علي قتل (غسق الغبرا) لإنهاء الكارثة قبل انتشارها في كل مكان!

ورغم الظروف الحالكة ابتسمت.. يا للدور الذي أعيشه! أقتل (غسق) الذي صار بمثابة ملك اليوم؟

الكل صار يدين لشخص واحد بالولاء والطاعة، فقد صنع ذلك الشخص ما لم يتوقعه أحد مطلقا، لقد انتقم! انتقم لأنين ومعاناة الجوعى والمشردين والمرضى والفقراء والأيتام والمساكين والعاطلين عن العمل الذين تخرجوا حديثا، والأطفال الذين يجوبون الشوارع بلا أهل أو أمل بالغد!

هكذا شارك الجميع (غسق) في تحقيق انتقامه، باركوه وتحولوا لجنود يمتثلون لأوامره مهما كانت.. القنبلة الموقوتة انفجرت أخيرا، حالة من الحقد الدفين آن لها أن تبزغ، لكن بزوغها بتلك الطريقة معناه الدمار الشامل لكلا الطرفين، مبدأ (شمشون):

عليّ وعلى أعدائي!

ماذا عن الانضمام إلى الملك الجديد؟ سيرحب بذلك حتما، وسيجعل مني ذراعه اليمنى بكل تأكيد، فقد ساهمت في عملية التخريب الكبرى أكبر مساهمة، وكثير من مواطني "أوتوقراطيا" يعلمون من أكون.. أنا "الجنرال" والمدبر، (جوبلز) الجديد الذي لن ينتحر لأي سبب كان، والرهاب سيصيب ألد أعدائي.. فوبيا الجنرال!

في هذا العالم الجديد سأكون شخصا مرحبا به، لن أسير كرجل خفي بعد اليوم، بل ستنحني لي أعظم الهامات، والفتيات سيحلقن من حولي كفراشات الحدائق الغناء، سأتحول من لا شيء إلى كل شيء، ومن أعظم بوابة تاريخية مشرفة سألج!

كانت عاصفة التغيير آتية لا محالة، أنا و(غسق الغبرا) سرَّعنا في عملية هبوبها فحسب! فصارت الشعوب اليوم على خط السواء مع الحكومات، وقريبا لن تكون هنالك حكومات البتة!

لقد كان (غسق) محقا، إن بداخل تلك الحكومات عائلات تحاول حماية أبنائها أيضا، والأجيال الجديدة أتت لأن الموت يختطف القديمة، جاهزة لأي تغيير ما دام سيكون جذريا!

النهاية الأولى

النهاية الثانية

نهضت بتثاقل شاعرا أن حالتي النفسية مستقرة إلى حد ما، فقررت الذهاب إلى الفيلا كي أفاجئ (غسق) بقدومي.. هو يتوقعه أصلا! أليس من حبسني ثم قام بإطلاق سراحي؟

سأكون مطيعا من الآن فصاعدا، لن أبدأ المتاعب فرصيدي منها كاف تماما.. سرت مسافة طويلة محاولا إيجاد سيارة أجرة واحدة لا يزال سائقها خاضعا للنظام وراضيا بقسمته ونصيبه دون جدوى، وجدت عددا من السيارات في عرض الشارع من دون أصحابها، ولدى تفقد إحداها وجدت مفتاحها بالداخل لحسن الحظ!

انطلقت بسيارتي الجديدة ــ والعتيقة ــ في الطريق السريع، حيث لمحت العديد من السيارات التي تركها أصحابها بصورة عشوائية كادت تدفعني للتسبب بحادث أكثر من مرة، وفوق رأسي حلقت ثلاث طائرات عامودية متجهة صوب المدينة التي ابتعدت عنها، شاهدت كذلك سيارات جيب تابعة للجيش على جانبي الطريق، لا أظنهم حضروا لصد مظاهرة أو ثورة، فقد كان أكثر الجنود يشربون علب البيرة ويدخنون! وقد التف معظمهم حول سيارات رياضية جديدة يبدو أنهم قد استولوا عليها، فأخذوا يتفحصونها بسعادة وبطريقة أقرب للهو الصغار، حيث أخذوا يتظاهرون بقيادتها دون إدارة المحركات، مطلقين أصوات النفير والانطلاقة المباغتة!

حتى الجيش صار منحازا للتيار الأوتوقراطي، ويريد نيل

حصته من غنائم الحرب! ابتلعت ريقي بصعوبة لما مررت بــالقرب منهم، فقد خشيت أن تأخذهم الحماسة بفتح نيرانهم علي طلبا للتسلية! فهم مسلحون ويشربون حتى الثمالة كما هو واضح، فقد شرع أكثرهم بالترنح والغناء! وحين يبدعون عملية اللهو بالــسلاح يستحــسن أن أكون بعيدا عنهم كفاية.. وبعدما قطعت مسافة متعبة، لمحت من بعيد مقر "أوتوقراطيا" العتيد.. وفي هذه المرة كان عدد السيارات يربــو على المائة! وكلها من أحدث طراز، في حين قدمت أنا بسيارة عتيقة يكاد محركها السيئ أن يلفظ أنفاسه الأخيرة!

صوت موسيقى سيمفونية "الفصول الأربعة " لفيفالدي ينبعــث في الفضاء البارد عن طريق مكبرات صوت حديثة وعملاقة للغاية، إذن فالاحتفالات الراقية تقام هنا، فهل سيــسمحون لنزيــل مــشفى للمجانين سابقا وعاطل عن العمل حاليا بالدخول والمشاركة؟

لم تثر آخر نقطة اهتمامي كثيرا وأنا أقــف متــأملا الأفــواج البشرية المتأنقة والمتضمخة بأرقى العطور الفواحة وأغلاها ثمنــا، أكثرهم يحمل كؤوس "الشمبانيا" الذهبية ويدخن باستمتاع، يراقصون فتياتهم بنعومة رومانسية، والقليل منهم عاكف على تبادل الأحاديــث ـــ وأحيانا القبل ـــ والقهقهة بأصوات مرتفعة..

ـــ "يا لكم من حمقى!"

كالأغنام المسيرة حيث أراد لها الراعي، لا تمانع الذبح ما دام الطعام والشراب موجودا قبل ذلك.. ما أثار اهتمامي أن الفيلا نفسها لم تعد كما كانت، فقد تم إنهاؤها بالكامل، فصارت مطلية باللون

الأبيض العاجي، وملائمة تماما للسكنى!

سرت بين الحضور وذهني منشغل بغسق، شعرت بحاجة ماسة لرؤيته كي أفهم، فحين أقابله ستتضح لي نواياي ومعتقداتي الحقيقيــة بشأنه، فإما الانضمام إليه أو قتله! أعتقد أن القتل لا يزال بمنأى عن يدي، أعلم بأني لن أفعلها أبدا..

ـــ "أيها الجنرال!"

أبصرت (أنطونيو) يقترب.. إنه الأشقر المفتول الذي عرفته في أول اجتماع لي مع أوتوقراطيا ولازلــت أذكــره، شــاب مــتحمس لأوتوقراطيا ومتعصب لها..

ارتمى في أحضاني ما أن بلغني، ثم صاح كي أسمعه بوضوح:

ـــ أين كنت كل تلك الفترة؟

ـــ عمل..

ـــ لصالح "أوتوقراطيا" أليس كذلك؟

ـــ بالضبط.. أين (غسق)؟

ـــ قال أنه يتوقع حضورك اليوم لزيارته وقد صدق!

ـــ أمر غير مستغرب..

رافقني لداخل الفيلا، ولم أمنع ابتســامتي من الارتســام حين لمحت الأثاث الفاخر وأوراق الجدران زاهية الألوان، وقد حلت محل أقوال (أفلاطون) و(ميخائيل نعيمة)!

ـــ "إنه بمكتبه فوق.."

وتنحى جانبا ليخالط باقي المدعوين، فنظرت لفوق بضيق..

ترى أنجح (غسق) في بث الرهبة بداخلي؟ أجعلني أنظر إليه من أسفل إلى فوق بتلك البساطة كما صنع مع الجميع؟ أحقا صرت أهابه بعدما أصبح حاكما تتوجب طاعته؟

ـ "في صحتك!"

استدرت خلفي لأجد (ميريام) تتأملني بابتسامة لطيفة، ازدادت الأريبة فتنة.. مرتدية ثوبا يفضح أكثر صدرها العامر وساقيها، كانت تحمل كأسين بداخل كل منهما شراب لونه مختلف عن الآخر..

ـ في صحة حاكمنا المقبل..

ـ بل سأشرب في صحة حاكمتنا المقبلة!

ناولتني الكأس وهي تقول ضاحكة:

ـ رباه! هل شاهدت ذقنك؟ أين كنت كل تلك المدة الطويلة؟

ـ لم لا تشمينني كي تعرفي أكثر؟ أراهن أنك تتصنعين الجهل!

تصنعت البراءة وهي ترد:

ـ ألم تكن خارج البلاد في رحلة سياحية؟

ـ تعلمين إذن!

شربت قليلا من الشراب الحامض البارد، وقلت لها متظاهرا بالحذر: أرجو ألا تكوني قد دسست لي السم..

حدَّجتني بنظرات غريبة، أقرب للحنان، لكن ما قالته كان أغرب: لا يمكنني أن أكون مؤذية بعد الآن!

ـ لأن "أوتوقراطيا" انتصرت؟

ـ لأني حامل يا عزيزي!

شعرت بالبلاهة التامة، كأنها مزحة مع أنها ممكنة الحدوث.. قد ألجمتني المفاجأة بشدة!

قالت (ميريام) وقد ظهر الشرود في تقاسيمها:

ـ تخيل معي هذا، أول طفل يولد في عهدنا الجديد!

ـ لا يمكنك أن تكوني متأكدة..

ـ سيغدو أميرا فيما بعد!

شعرت بسخف أحلام يقظتها، لكنني تطرقت للمسألة الحساسة دونما إبطاء:

ـ هل تزوجك؟

ـ ليس بعد..

قلت متظاهرا بالتفهم:

ـ لغة الجسد أقوى من أي ارتباطات واهنة على الورق!

لم تفهم الحمقاء تهكمي، فقد أسرعت تقول بحماسة:

ـ ذلك ما فكرنا فيه بالضبط! إنه انتصار جديد للحب ضد كل تلك الحواجز الروتينية الجديرة بالازدراء!

قمت بشرب ما تبقى من عصيري كي يرتوي حلقي الجاف، ووضعت الكأس على الأرضية قائلا لها: اسمحي لي بمقابلة صديقي القديم وملكي الحالي يا صاحبة الجلالة!

ـ أرجو أن تحسن التصرف هذه المرة.. تذكر أننا نحبك!

عاودت النظر إلى فوق مترددا، وبوهن بعض الشيء، ثم صعدت عقب ثوان.. تذكرت سنوات الدراسة والشقاوة والبحث عن

المتاعب في كل حدب وصوب، ثم تبينت الأمر في النهاية، إنه مجرد مغامر صعلوك صار ثريا وكان صديقي يوما! مجرد ثري متعجرف يهوى العبث والتخريب.. أليست تلك هي حجرة المكتب؟

فتحت الباب، فوجدته بانتظاري داخل أروع حجرة مكتب وقع بصري عليها، كانت فاخرة ومعتنى بها حتى بأدق التفاصيل، وثمة مكتبة هائلة تغري (الجاحظ) بالإقامة بين أرففها الواسعة والمكتظة بمختلف أنواع وأحجام الكتب.. كان يتأمل لوحات مرسومة بين يديه موليا ظهره لي، استدار ليتأملني بوجه بشوش، لم يتغير كثيرا، ربما استطالت لحيته بعض الشيء، وهندامه أنيق هذه المرة، بدلة وربطة عنق.. أراني بعضا من تلك اللوحات التي يحملها فتعرفتها على الفور، إنها التي قمت برسمها داخل زنزانتي، وقد قام بوضعها داخل إطارات مذهبة ذات نقوش وزخارف بديعة!

سألني بمرح:

ـ أيها الأنسب لتعليقها على الجدار الذي خلف المكتب؟

لم أجب، فأردف متأملا اللوحات بإعجاب، ومتابعا لعب دور الشرير الأرستقراطي بحذلقة:

ـ في الواقع سأقوم بتعليقها كلها، صحيح أني أكره صور المناظر الطبيعية، لكنك نجحت في جعلي أحبها!

لم يكن فكري مبلبلا، ولم أشعر بالرهبة أو الخوف مطلقا، فهو (غسق).. صديقي القديم والحقير!

ـ "أيها الحقير!!"

وانقضضت عليه وقد شعرت باستعدادي التام لقتله..

ـ "سأقتلك بيديَّ فقط!!"

أبرزت أسناني أيضا، فقد قررت استخدامها لاقتلاع الأوردة في عنقه، وبقبضتي الخشنة أدميت فكه، فانهال على صدري باللكمات، قمت بتطويق وسطه بذراعي صارخا لأجن أكثر:

ـ أيها الجرو!!

ودفعت به صوب خزانة زجاجية تحوي تحفا تظهر عبقرية الصينيين بالمنمنمات.. تحطم كل شيء تقريبا، وكذلك أنفي عندما سدد لكمته القاسية تلك، فدفنت قدمي في صدره لأدفعه عني، ثم عاودت انقضاضي عليه، مما دعاه لاستعمال قدمه أيضا، ولكن ببراعة تضاهي العشوائية التي أقوم بها!

كانت قوته هائلة رغم نحوله الذي ينافس نحولي، ثمة مقدرة معينة اكتسبها، فقد كنت في الماضي أهزمه إذا ما اشتبكنا، وحين فرغنا من نزالنا الحالي كانت حالي أسوأ من حاله وأشنع..

بقيت ممددا على الأرض، شاعرا بفتحات وجهي تنزف بأسرها، وقلت وقد عجزت عن إيقاف لهاثي:

ـ صرت صلبا أيها الحقير!

لهث وهو لا يزال واقفا، ومسح الدم عن شفتيه قائلا بسرور وابتهاج رغم ما أصابه:

ـ كنت على أهبة الاستعداد لهذه المواجهة الممتعة!

ـ ماذا تقصد؟

رفع بقبضتيه أمام صدره ليريني إياهما وهو مبتسم:

ــ الأعصاب.. بها يكمن السر!

ــ أحرقتهما مرة أخرى؟

ــ بالطريقة الصحيحة هذه المرة!

وبصقت مزيدا من الدم، فقال لي:

ــ كفً عن تلطيخ السجادة..

واصلت البصق لإغاظته، لكنه لم يكن مباليا كما كان يتظاهر..

جلس على طرف مكتبه الضخم ليتناول من العلبة التي بجواره سيجارة أشعلها بقداحة ضخمة، في حين منحت ظهري للحائط، وببصر يرى الصور مشوشة كالإرسال الرديء نظرت إليه..

ــ "ما الذي فعلته يا (غسق) في غيابي؟"

أخرج الدخان السام من فمه المفغور على شكل حلقات.. تأملها قائلا: ألم نغدو سواسية كأسنان المشط؟

ــ صرنا كأسنان المنشار الكهربائي! وقريبا يقطع بعضنا بعضا..

ــ ألن تكف عن الحمق؟

ــ حين تكف أنت عن الحياة!

نهض من قعدته بوجه متصلب، واقترب مني متسائلا بفظاظة:

ــ قدمت لقتلي إذن؟

ــ ربما!

ــ جريء حقا، لكنك للأسف تلفظت بالكلمات غير المناسبة..

قلت مستهزئا:

ــ ألسنا في "أوتوقراطيا" حيث حرية التعبير عن الآراء مقدسة؟ ألا يمكنني قول كل ما أريده في هذا العهد الميمون أيضا؟

ــ لم ولن تتغير، حاولت معك مرارا لكنك كما عهدتك للأسف، عزائي الوحيد هو نجاحي الخارق في تغيير النظام!

ــ بأن حولته لفوضى!

ــ بل لنظام جديد! نظام حرية ومساواة وعدل، لا مجرد شعارات كما في السابق..

ــ الناس بالخارج تعمل على هواها! قريبا سيتناحرون لقاء لقمة العيش حقيقة لا مجازا!

ــ الناس كانوا بحاجة لذلك المتنفس منذ زمن بعيد، "أوتوقراطيا" تستحيل لنظام عالمي كاسح..

ــ أتقصد بأن تناحر الشعوب سيتم في كل مكان؟

ــ كل ما على المرء فعله اليوم هو أن يفكر في الذي يريد فعله فحسب، ليس عليه التفكير بعد الآن في كيفية فعله! تريد أن تأكل داخل مطعم راق؟ أن تنام داخل فندق فاخر؟ أن تقود سيارة من أحدث طراز؟ يمكنك فعل ما هو أكثر، يمكنك سماع ما تحب وقول ما تريد، يمكنك الارتحال لأي مكان تشاء دون جواز سفر، فلن تعترضك حدود بعد اليوم، ولن تضطر إلى دفع رسوم أو ضرائب لأي شيء مهما كان.. تريد الرحيل لفلسطين كي تصيبك طلقة في الرأس وتنال الشهادة وتريحنا؟ يمكنك ذلك فالحدود مفتوحة الآن،

يمكنك السفر إلى هناك والتسلل دون خوف من أن تصيبك رصاصة من سلاح قناص عربي يحرس الحدود الإسرائيلية!

تريد الانتقام؟ بإمكانك الانتقام من قاتل أو مغتصب دون التردد على المحاكم حتى يضيع حقك رغم كثرة مطالبتك به!

ـ شريعة الغاب! قد عممت قانون الغابة كي يعملوا به في كل مكان! حولتهم لحيوانات شرسة سيصير عليها الاقتتال لأهون الأمور! لن يكون هناك قانون لحماية أحد، ولن يعمل بعد اليوم أحد! وعندما تنفد مواردنا ستحدث مذبحة لا هوادة فيها، لقد فشلت حكوماتنا في السيطرة عليكم، لكن ماذا لو نجحت الحكومات الأخرى التي في الخارج؟ عندئذ سيدخلون بجيوش عرمرمة ويكتسحون الجميع، فنصير عبيدا بكل ما تحمل الكلمة من معاني هذه المرة!

ابتسم متأملا من خلال نافذته جموع الشبان المرحة التي لا تفقه شيئا مما سيحل من كوارث، ثم قال بجفاء أرعبني:

ـ كل ما يفهمونه من الحياة الغناء والرقص طوال الوقت، ثمة شبان طموحين في عالمنا، يخترعون ويكتشفون ويطورون فتتطور البلاد بفضلهم، أما عن هؤلاء فهمهم الأوحد مضاجعة بعضهم البعض! لكن قريبا سيعلمون ماهية الحياة، سيودعون أغانيهم التافهة وعيد العشاق ليتذوقوا الطعم الحقيقي المرير للحياة!

ـ أنت من ذات عينتهم، ومع هذا تسيّرهم نحو مستقبل داكن كما لو كان انتقاما أسودا..

ـ يا لك من غرير أعمى البصيرة!

أنسيت أنني كنت مثلك في الماضي؟

ـ واليوم أنت ثري تستطيع أن تكون سعيدا، فلماذا لم تحاول الاستمتاع بما لديك بدلا من مزاولة ألاعيبك التخريبية؟

ـ أنسيت أنني عشت كخادم وضيع لزوجة أبي المأفونة وأولادها الأوباش في تلك الفيلا القديمة؟

ووجم قليلا وقد أخفض رأسه، ثم رفعه ببطء مستدركا قوله:

ـ دعني أعد صياغة ذلك، فقد بدا سخيفا كحكاية سندريلا!

كنت أنام في حجرة السائق التي بالخارج..

وعندما توفي والدي وفتحت وصيته، فوجئت الحيزبون التي تزوجها بأن نصيبي من ثروته كان نصيب الأسد، كما لو كان يطلب مني مسامحته على الأيام السوداء التي جعلني أقضيها في..

قاطعته شاعراً ببعض الإجهاد: لن تتمكن من جعلي أذرف دمعة واحدة أسفا عليك يا (غسق)!

ضحك قبل أن يقول بتهكم:

ـ أتعني بأنه لا يسعني أن أكون مقهورا تعسا مثلك بعد الآن؟

ـ أنت مجنون مسعاه الانتقام باسم التغيير!

ـ لا بأس من أن ينال المرء انتقامه أثناء عمل الخير للناس! ما قمنا به سوية لهو الانتقام المثالي!

ـ وكيف نويت تربية ولي العهد المنتظر؟

تجهم وجهه بشكل ملحوظ، من الطبيعي ألا يكون سعيدا للأمر..

ـ "هي التي أخبرتك، أليس كذلك؟"

ـ ومن غيرها سيفعل؟ كانت متفائلة وسعيدة..

ـ يا للساقطة الثرثارة! أمرتها بالتخلص من حملها السخيف أكثر من مرة..

ـ الظاهر أنها تحبك..

ـ وهل يتوجب عليّ أن أحبها بالمقابل؟ تبا لها!

شعرت بالأسف على الفتاة، فصحت بغضب:

ـ لا أستغرب هذا القول من وضيع مثلك!

رمقني بنظرة غضبى قائلا:

ـ سجنك كان بمثابة عقاب خاص، فأنا لا أعاقب المنشق بتلك الوسائل الناعمة عادة، عليك أن تحمد الله وتشكره ألف مرة على الأقل لأننا أصدقاء، وإلا لكنت لاقيت مصير (سيرين)!

ارتجفت يداي بشدة لما سمعت اسم (سيرين)، لازلت أذكره حتى عقب كل تلك السنين، رأيت وجهها الرقيق يتأملني بحزنه الذي حفر في تقاسيمها للأبد، فشعرت برغبة في التقيؤ على وجه (غسق)، لكنني سألته عوضا عن ذلك بصدر منقبض:

ـ هل أنت قاتلها يا (غسق)؟ أبتهل إلى الله ألا تكون أنت!

ـ ما كان عليها التلميح بأن ما نقوم به خطأ! إنه عقاب رادع لمن يفكر بزرع التفرقة بيننا!

ـ هل أنت مجنون وضيع؟!

إنه مجنون وضيع!

ـ "قتلت المسكينة بتلك البشاعة لأنها همست برأي صائب عنكم؟!"

تنهد قبل أن يقول ممتعضا:

ـ لا زلت على موقفك المدحور؟ ابق انهزاميا إذن!

واتجه نحو مكتبه ليضغط زر جهاز كان على سطحه..

نجحت في النهوض أخيرا مقررا الانتقام لسيرين، لكن (أنطونيو) دلف الحجرة عقب برهة ليظهر استغراب كلي على وجهه، فقال متأملا الفوضى التي أصابت المكان:

ـ ما الذي حدث؟

ـ أريد هذا الخائن فاقدا لوعيه الآن!

ـ الجنرال؟!

ـ لم يعد كذلك فقد عزلته عن منصبه..

تأملني مسمرا بمكانه غير مصدق، فصرخ (غسق) موقظا إياه:

ـ ما الذي تنتظره أيها الأوتوقراطي؟

ـ كيف أفقده وعيه؟

ـ اضربه حتى يفقده! فهو خائن يستحق ما هو أكثر!

اتجه نحوي متصنعا الصلابة، فقلت لما رأيت تكشيرة أسنانه التي لا تبشر بخير:

ـ على رسلك أيها البغل، لا تتهور أكثر!

لكنه بدا مصرا على المضي قدما بتنفيذ أوامر ملكه، فلما بلغني وجه لكمة قاسية صوب ذقني، ألقتني للخلف كي أصدم آنية خزفية

بدت باهظة الثمن، فسقطت وأسقطتها معي أرضا لتتحطم بدوي صاخب..

ـ "أيها الثور!"

أزاح (غسق) بنفاد صبر (أنطونيو) الذي غمغم بارتباك البلهاء:

ـ لكنه لا يفقد الوعي!

ـ أبله!

قلت شاعرا بالأورام تنبت في شتى بقاع وجهي:

ـ يا لحسن الضيافة! ألن نشرب نخبا؟

لكن قبضة (غسق) المحترقة أخرستني هذه المرة..

*****

كانت عتمة مخيفة، تخالف تلك التي أولجني إياها عقار الهلوسة.. وعندما أفقت شاهدت تلك البقع السخيفة المشوشة، ها هي ذي تصعد وتهبط بلا توقف وبغير معالم!

ولكن أين أنا هذه المرة؟

ـ "استيقظ أيها المتأمل التعس!"

حين استعدت وعيي وجدت بدني بوضعية عجيبة بعض الشيء، فقد كان محمولا من قبل (غسق) وتابعه الأبله، حيث أخذا يؤرجحانه صوب هوة سحيقة! فلو أسقطاني لتحطمت على الصخور التي بالأسفل قبل بلوغي مياه البحيرة هناك!

صرخت شبه متهالك محاولا مقاومتهما:

ـ هل جننتما؟!

ـ العين بالعين يا صديقي الأسبق، قدمت محاولا قتلي والآن تنعكس الآية..

ـ اهدأ يا (غسق)!!

كأن كل شعرة في رأسي قد استحالت للون أبيض في كل مرة يتظاهران فيها بتطويحي في الهوة التي بدت سحيقة للغاية ومظلمة للغاية، في حين أردف (غسق) متشفيا لكن بحنق أيضا:

ـ ما قولك بأن نفلتك.. الآن!

وتظاهرا بفعلها، فأفلتت مني صرخة رعب جعلتهما يغرقان في الضحك!

ـ "كالفتاة الصغيرة؟! توقعت موقفا شجاعا بجدارة!"

ـ أنزلني!

ـ لم أحسبك جبانا لتلك الدرجة..

وددت أن أصرخ في وجهه:

ضع نفسك محلي ولنر شجاعتك أنت!

ـ "أرجوك أن تنزلني!"

ـ لكنك صرت حجر عثرة في طريقنا..

ـ ليس بعد الآن..

ـ ماذا تعني؟

ـ أريد العودة إلى ما كنت عليه..

ـ وتتوقع مني تصديقك بعد الذي قلته وفعلته؟

ـ إنها إرادة القتل! أنت تملكها بل وتستمتع بها كما هو ظاهر،

قتلت (سيرين) وبإمكانك قتلي وقتما تشاء، ورغم أن قتلك قـد يحـل الكارثة التي تسببنا بها معا.. لم أتمكن من فعلها بتاتا!

صاح (أنطونيو) مفتعلا صرامة لا يمتلكها:

ـ لا تصدقه أيها القائد، دعنا نرمي به ونستريح منـه، أنـت بنفسك قلت أنه خائن..

وهنا أفلتني (غسق) بطريقة أوقعتني في بر الأمـان متوجعـا، وقال بهدوء ويده معلقة بخاصرته:

ـ وهو الآن ليس كذلك!

ـ وقانون "أوتوقراطيا"؟

ـ لقد قدم خدمات جليلة لأوتوقراطيا المجيدة، ألا يستحق لذلك فرصة أخرى؟

نطقها آمرا لا متسائلا، فهمس (أنطونيو) لغسق وهو يرمقنـي بحقد: إنني أنفذ أوامرك فحسب!

حدَّجني (غسق) بنظرات متفحصة كما لو كان يبحث عن شيء فقده، اقترب ومال صوبي قائلا:

ـ هنا والآن وليس بعد ذلك، أخبرك بأن ممارسـة الألاعيـب معي لن تجدي نفعا، أنت قلتها، بإمكاني القتل بسهولة!

أنا لن أستمتع بقتل صديقي القديم! أريدك معي وسـط أولئـك البلهاء الذين يفكرون بعقول منمنمة، ويرضخون بسهولة كما رضـخ العرب للصهاينة منذ أمد بعيد.. حين تعود برفقتي سـتغدو جنـرالا آمرا، وسترى أن ما قمنا به سوية ليس مجرد جنـح للتهـور، بـل

صناعة تاريخ جديد! دعنا نتعاون على صـنعه، وإلا جعلـت تلـك الصخور بالأسفل مثواك الأخير..

عاونه على النهوض ولنرحل من هنا!

واتجه للسيارة تاركا مساعده الخشن يقوم بإنهاضي، واضـعا ذراعي حول عنقه، وممسكا كفي بقبضته، وسرنا خلف (غسق) الذي قرر قيادة سيارة (أنطونيو) الذي جلس بجواري في الخلف..

سألني (غسق) قبل أن ننطلق:

ـ هل أنت بخير؟

ـ ليس تماما..

ـ سنعالجك فلا تقلق..

فركت جبهتي قائلا بوجل:

ـ معك سيجارة؟

ابتسم بارتياح لأول مرة منذ قدومنا للمكان المقفـر، ثـم قـال لأنطونيو: أعطه سيجارة..

وضع الفتى سيجارة في فمي، ثم طفق بكـل حماقـة يتأمـل الطريق، فقلت لغسق بعصبية:

ـ من أين تجلب أمخاخ الكتاكيت هذه؟ كيف أشعلها؟ بإبهامي؟

أشعل (أنطونيو) سيجارتي مصوبا إليّ نظرات ملتهبة، فقلـت لغسق دون النظر للفتى:

ـ قل لهذا الأوتوقراطي المغفل أن يحترم قائده!

ـ سيطيع الأوامر بالطبع!

بدا استياء عميق على (أنطونيو)، فواصلت تجاهله قائلا باسترخاء: خطرت ببالي فكرة لا بأس بها..

ــ ألا وهي؟

ــ ألا تظن أنه تنقصنا تحية عالمية يجب القيام بها دوما؟ تحية أوتوقراطية؟

ــ أتعني كالنازية؟

ــ تماما!

قام (غسق) بتشغيل المسجلة متحمسا، وصاح وأغنية غربية صاخبة تخترق الأسماع كهزيم الرعد:

ــ وهانحن أولاء نستعيد الأيام الخوالي! أتحفنا يا أبا التخطيط والخطط العبقرية!

ــ لدي تصور مناسب لتلك التحية..

ــ أرنا أيها العزيز!

ــ إنها خليط من تحيتي الكشافة والجيش.. تضم السبابة والوسطى هكذا..

وأطبقت بهما على عقب السيجارة، وأكملت حديثي:

ــ ثم نرفعهما ناحية الصدغ..

وبدلا من أن أوجههما صوب صدغي، دفعت بالعقب المشتعل في جبهة (أنطونيو) حيث أطفأته هنالك جيدا!

صرخ الفتى وكأن كلبا مسعورا قد عضه، في حين قمت بفتح الباب ودفع جسده للخارج بكلتا قدماي، ثم طوقت عنق (غسق)

بذراعي قائلا بوعيد: أهلا!

كان الوغد متفاجئا كأفضل ما يمكن، لم أرحمه إذ قمت بضربه بكل قوتي وغضبي وتهوري لأن السيارة كانت منطلقة بسرعة سيارات السباق، لكن جروحي حولتني لوحش بدائي كاسر، فمقاومة (غسق) لم تجده نفعا، بدت بالنسبة لي مضحكة، لدرجة أني انتزعته من مكانه بسهولة، ودفعته إلى المقعد الذي بجوار السائق، وعوضا عنه احتللت مقعد القيادة!

صرخت فيه مديرا عجلة القيادة ومحولا مسار المركبة:

ــ أنت حبستني وقتلت (سيرين)، والآن آن أوان تسديد الحساب!

كبطل رواية تدنو من نهايتها! هكذا عاودت الانطلاق بأقصى سرعة ممكنة صوب الهوة السحيقة، فصرخ (غسق) وهو يهاجمني من الخلف:

ــ سأشق جمجمتك أيها الخائن!

دفعته عني بكل ما أوتيت من قوة، ورددت عليه بلكمات قاسية في كل مرة انقض بها علي، حاول الإمساك بعجلة القيادة عدة مرات، لكنني أظهرت صلابة لا تصدق..

اقتربنا من الهوة كثيرا، فصحت بأعلى صوتي:

ــ مطلبك الأخير أيها الشيطان!

استحال بغتة طفلا خائفا وهو يهتف مرعوبا:

ــ أوقف السيارة حالا أيها المجنون!!

ــ حاكم "أوتوقراطيا" يخاف؟ توقعت موقفا شجاعا بجدارة!!

وشرعت أقهقه كالسكير في حفلات الشراب، فاشتد الذعر في نفس غريمي.. وفي النهاية صحت بمرح جنوني:

ــ ما قولك؟ أفردوس أم سعير متأجج؟!

ثم حلقت بنا السيارة في الهواء كالرخ العملاق الذي حمل السندباد في الأساطير، فانتابتني نشوة جامحة جعلتني أطلق صرخة نصر هائلة، شعرت معها أنني تحررت من كل قيودي أخيرا..

وعندما ابتدأنا رحلة الهبوط، قررت إغماض بصري للاستمتاع بالسكينة للمرة الأولى في حياتي المبتذلة بأسرها!

النهاية الثالثة والأخيرة

السماء خضراء اللون.. بل أقحوانية! كانت أقحوانية اللون، ربما مع مزيج من اللونين الأخضر والأزرق.. يا للروعة! كنت أحلق في تلك الأجواء الشاسعة المغبطة، حيث لمحت شهبا تهوي لفوق! هل سمع أحد بشهب تهوي لفوق؟ تلك الشهب تصنع ذلك! وأنا أحلق في تلك الأجواء، لا بل أهوي! رباه إنني أهوي! لكن ببطء.. ثمة تفاصيل ضبابية كالبنايات، تظهر كلما لاح في الأفق ما يشابه ظاهرة البرق، أعتقد بأنني تعديت حدود العالم المنطقي المألوف، حيث يلاعبني عقلي الباطن ملاعبة القط للفأر في بقعة الهستيريا!

لا ألمح أرضا، ورغم ذلك وجدت جسدي ساكنا على أرض غارقة في العتمة، ونصف ساقي مغمور داخل مياه بحيرة خلابة لكنها غريبة.. فحين رفعت ساقي لم أجدها مبتلة بقطرة ماء واحدة!

ذكرت هلاوسي من المرة السابقة فتبسمت، لابد أن الحادث كان شديدا لدرجة إصابتي بصدمة دفعتني لاستعادة بعض من قديمي ليخالط حاضري، بالتأكيد قضى (غسق الغبرا) في الحادث، فشعرت بألم مر لتذكري فقدان من كان صديقي يوما.. يعلم الله أنني اضطررت لاجتثاث العشبة الضارة لكن بصورة قاسية..

ربما غفر الله لي أخطائي وخطاياي وأدخلني فردوسه الأزلي!

أم تراه الجنون يا إلهي؟ هل جننت إذن؟ أيقوم جسدي الآن بأفعال شنيعة في عالم الواقع، أم هو ساكن على سرير داخل

مستشفى حكومي رخيص؟

ـ "لا يهم.."

يمكنني البقاء هنا للأبد..

أغرقت ساعدي حتى المرفق في مياه البحيرة، فشعرت ببرودتها بشكل طبيعي مطمئن..

ولما أخرجته، وجدته جافا كما لم يمسسه ماء!

أبصرت بقعة في كبد السماء، كانت تتموج، قد كان ذلك مسليا ومثيرا في آن واحد، لمحت كذلك بقعا داكنة صغيرة تحلق من أمام البقعة الأولى الكبرى، وإذ بها تتموج عند المرور، ومن ثم تستعيد طبيعتها غريبة التكوين عندما تبتعد عن تلك البقعة، حتما هي طيور هذا العالم الساحر، ولربما البقعة الكبرى شمسها.. أغلقت جفني، إذ شممت رائحة عطر رغبت بملء أنفاسي منه، ونهضت بعينين مغمضتين فسرت على اليابسة غير المرئية بضع خطوات، ثم ببطء وحذر قمت بفتحهما..

ـ "أنت؟!"

نهضت بعيون متسعة ورأسي يلتف للخلف، فكانت هناك!

ـ "لابد وأنه حلم!"

اقتربت مني ببطء، كانت كما قابلتها آخر مرة في "الكافيه"، بل أكثر جمالا ونضرة.. شعرت بالخوف منها، لكني لم أتراجع، قدماي تجمدتا بمكانهما.. ابتسمت لي، وما ان بلغتني حتى طبعت على خدي قبلة حارة، همست بعدها في أذني اليمنى بصوت دافئ:

ـ استيقظ أيها المتأمل التعس!

كان شعورا عجيبا لا يمكن وصفه سوى بالمعجزة.. كفئران "هاملن" التي سحرتها ألحان عازف الناي!

بدوت مبلبل الفكر حين قالت لي برفق محتضنة بين ذراعيها أوراقا لم أتبين ماهيتها :

ـ اتبعني ..

*****

في زاوية "الكافيه" شبه المعتمة جلس.. شاب دقيق التقاسيم، ببنية عريضة وشعر بني، فيه شتى الصفات الجاذبة للجنس الناعم، ورغم ذلك لم تنجذب (كاتيا) إليه على الإطلاق..

لما وقع بصره عليها أول مرة شعر بأحاسيس تفوق الوصف تداعب أوتار قلبه، عازفة ألحان الحب المثيرة للشجن، تمنى لو يتحقق له تتويجها ملكة على عرش فؤاده ومشاعره للأزل، فعمل مكثفا لجعل الحلم حقيقة لدرجة انتقاله إلى كليتها حيث تدرس..

حاول مرارا مساعدتها في الأمور المبسطة، تصوير الأوراق أو شراء الكتب، إقراض دفتر المحاضرات التي تغيبت عنها، لكنها بقيت معرضة عنه وتنفر منه كما لو كان الوباء..

جعله ذلك يزداد إصرارا، وعظم حبه لها لصدها الدائم له، فبالتدريج اضمحلت غريزة الصياد لديه، وأخذ يطالب بها كما يشاء الله ويحب، لكنها بقت على حالها معه ومعاملتها النافرة منه.. لاحظ أنها لا ترتاح في الحديث سوى مع صديقتها الوحيدة التي هي كذلك

شريكتها في المسكن، فتاة جميلة لكنها لم تسحره كما صنعت (كاتيا إحسان)، الحسناء الهادئة المتزنة ذات التحصيل العلمي المشرف والغموض المثير لمخيلته! لم يهوى المطالعة يوما، ومع ذلك حفظ روايتها عن ظهر قلب، ذات مرة طلب توقيعها على نسخته، فأعرضت عنه! فكصخور الشواطئ هي صعبة المراس، لا تؤخذ بالهين.. مضت نصف ساعة وصديقتها التي ضرب لها موعدا باللقاء لم تظهر بعد، وهو يحب الدقة في المواعيد كلوردات الإنجليز، وبذلك يسهل الاستنتاج أن الفتاة مستهترة لا تلق بالا للأولويات..

أخيرا لاحت، بشعرها الثائر كالبراكين وعيونها الواسعة المحملقة، نبه "الجينز" الضيق الذي ترتديه غريزة الصياد عنده، هذه فتاة يسهل إسقاطها بكل يسر داخل شباكه، كذا فكر مسلطا بصره صوب حقيبة سخيفة على شكل أرنب كانت تحملها..

لوحت له من بعيد أن: "هاي!" فتبسم بتهكم لفهمه المتحررة على الفور، لكنه ليس هنا لإضاعة الوقت برفقتها، هو فقط يود الظفر بالمعلومات الثمينة عن (كاتيا) التي أنهكه هواها..

نهض بابتسامة لبقة ـ كان ينتقي ابتساماته كانتقائه لربطة عنقه ـ وقال بنبرة هادئة: (نسرين) أليس كذلك؟

ـ هو كذلك يا سيد (رائف)، نحن زملاء منذ زمن ولازلت غير واثق؟

اتخذا مقعديهما بمواجهة بعضهما، كانت واثقة غير بريئة كما استنتج، ولها تجاربها مع الذكور فأريحيتها معه تشي بذلك، بل

وتدخن أيضا! وقبل سؤالها عن القداحة أخرجها وأشعل بها سيجارتها، فاستنشقت نفسا صوبته اتجاهه قبيل إطلاقه، فلم يعر تلك الطرائق الواهية أدنى اهتمام وهو المعلم غير الفاضل، (كاتيا) هي الشاغل لمجمل ذهنه الآن..

قال لها مقررا ولوج صلب الموضوع بأقصى سرعة:

ـ أنت تعلمين سبب طلبي رؤيتك..

ـ (كاتيا إحسان)، ومن غيرها يأسر القلوب؟

ـ إذن فقد استنتجت أنها أسرت قلبي أيضا..

ـ بتحصيل حاصل..

ـ وأنها لا تراني كما لو كنت الهواء..

ـ فهي (كاتيا) التي أعرفها حق المعرفة..

ثم أضافت إضافة غريبة ألقتها بغموض:

ـ وهي ترى أشياء نحسبها نحن العقلاء الهواء!

ـ معذرة؟!

ظهر النادل في تلك اللحظة ليأخذ طلباتهما، فطلب لها فنجان قهوة وله عصير برتقال، قامت بسحب نفس آخر من سيجارتها وهي تسأله متظاهرة بالوجوم:

ـ منذ متى وأنت تلاحق (كاتيا)؟

ـ منذ سنة تقريبا..

ـ دون أن تعلم أن اسمها الحقيقي هو (ناتالي)؟

وتبسمت لدى رؤية الحيرة على وجهه كالولد التائه..

ــ "مفاجأة!"

ــ أنا لا أفهم!

تأملت المنفضة التي أسقطت داخلها بعض رماد سيجارتها مردفة:

ــ (كاتيا) هو الاسم الذي تستخدمه مع الأغراب أو في علاقاتها مع بعض الزميلات، وبالذات في كتاباتها! ولولا أني صديقتها المقربة لما أطلعتني على اسمها الحقيقي! ألم تلحظ يوما غرابة أطوارها؟

ــ بتاتا..

ولم ينجح في محو بسمته المستخفة، والآن تحاول الصديقة المقربة ــ ونعم الصديقة!ــ إظهار صديقتها بذلك السوء بمكر أريب، وهو لن يسمح لفتاة غيورة بهزيمته!

قالت بعصبية زادت من ثقته بنفسه:

ــ لا تكابر! همسة من هذه؟ عبارة تهكمية من تلك؟ فإنني واثقة من سماعك إشاعة ما فسرتها على أنها تصدر من قلوب الحساد وأعداء النجاح، إنه جنون اللواتي يمارسن الكتابة، فإما أن يفقدن عقولهن أو ينتحرن!

ردَّ قائلا بهدوء: معك حق، إن أعداء النجاح لكثر!

ــ ماذا تقصد؟

ــ من الطبيعي أن يشعر الجميع بالغيرة من نجاح فتاة في شتى المجالات!

ــ أتدري أنك أحمق؟ أتدري أن فتاتك الناجحة في شتى المجالات أخبرتني بأنها قد حاولت الانتحار يوما لكنها لم ترض ذكرالأسباب؟

شعر بقوة التلفيق في تلك الحكاية، فردَّ مستخفا:

ــ آنسة (نسرين) إن الأمر يتعسر تصديقه صراحة..

أطفأت السيجارة التي أنهتها في المنفضة بسخط بالغ ظهر في كلماتها لما قالت مقطبة الجبين:

ــ أنت تحسب غيرتي منها سبب كل ما قلته لك، تحسبني أحاول إظهارها مشوهة الصورة لعداوة أنثوية..

ــ آنسة (نسرين)..

ــ اسمعني فقط أيها اللبق..

صمت مقررا الإنصات حتى نهاية المطاف، فاستحسنت ذلك قائلة عقب برهة صمت:

ــ الشهر الفائت أخبرتني أنها شعرت ببعض الإرهاق، كنا نطوف المكان للتسوق، فاتفقنا على أن تنتظرني في هذا "الكافيه" ريثما أتم شراء بقية حوائجي، تغيبت لساعة واحدة عدت بعدها إلى هنا.. هل بإمكانك أن تخمن ما رأيته بأم عيني؟

رأيتها! جميلتك (ناتالي)! تحادث المقعد الذي تجلس عليه أنت! والذي كان فارغًا يومها ما لم أكن مخبولة أنا الأخرى! إلا لو كانت تجيد لغة الهواء!

ــ لم أفهم..

قالها بعصبية ووجهه في صوب آخر، لكنها واصلت تحطيم قلبه بقساوة مفرطة: بل لا تريد الفهم! (ناتالي إحسان) الكاتبة الموهوبة والمجنونة، والتي حاولت الانتحار ذات مرة.. كثيرون

رأوها أو سمعوها ـ ومنهم أنا ولربما أنت كذلك ـ تحادث شخوصا غير موجودة! واحد يدعى (غسق الغبرا)، وآخر الجنـرال، وثالـث حصيف الـ.. شيء ما!

ـ ومن يكونون بحق الله؟

ـ ربما شخوص روايتها القادمة، أليست كاتبة؟ هو جنون الذين يمارسون الكتابة كما أخبرتك!

تبسم مستنكرا وهو يقول:

ـ أرجو أن تكفي عن المزاح السمج يا آنسة..

ـ تحسبني أمازحك حقا؟ معظم الوقت تحادث أوهاما من تلفيق مخيلتها، أحيانا كثيرة كانت تصرخ عن جماعة مخبولة تطلق على نفسها اسم "أوتوقراطيا"! وقد ذكرت مرات عـدة أن نهايتنا باتت وشيكة على يد تلك الجماعة المدمرة، هلم قل بأنك لا تعلم شيئا عما ذكرته لك! المشكلة أنه يعلم للأسف! كلامها نبهه لعديد من النقاط التي كان يحاول جاهدا إغفالها بأية وسيلة، الآن فقط فهم سر مناداة الطالبات لكاتيا ـ أو (ناتالي) ـ بالمخبولة مرات لا تحصى، فهم سر ميلها الشديد للعزلة والانطوائية، فهم سر محادثتها لنفسها بهدوء تارة وبسخط تارة أخرى.. ذات مرة جلس خلفها في إحدى المحاضرات، كانت شاردة الذهن، يدها ممسكة بقلم خطت به على إحدى صفحات دفترها عبارة أثارت حيرته بشدة يومها:

"إن أوتوقراطيا هي المسئولة عن نشر الظلام الحالك..

اليوم تجدنا في أي مكان، غدا تجدنا في كل مكان!"

كانت أمنيته الخالصة أن تكون أحاديث (نسرين) مجرد أحاديث غيرة من صديقتها الجميلة الناجحة، ولكن ثمة رأس وذيل لكل ما ذكرته للأسف، ما رآه وما رأوه جميعا عن (كاتيا) أو (ناتالي) يدحض كل شك.. يا للخسارة!

بخيبة أمل كبرى تأمل (نسرين) متسائلا:

ـ لكن كيف؟

ـ كيف ماذا؟

ـ كيف بقيت صديقتها كل تلك المدة؟ أعني لماذا لم تتركيها؟

أجابت متظاهرة بالرقة والأسى:

ـ لست قاسية، فرغم كل شيء هي مجرد فتاة مستحقة لشفقتنا ومساعدتنا، فهل نتركها؟

ـ معك كل الحق..

ـ المشكلة أنني سئمت مضايقات الفتيات في الجامعة والسكن، فإذا كانت (ناتالي) المخبولة أكون صديقتها المخبولة أيضا.. تلك هي عذاباتي!

ـ أتفهم شعورك جيدا..

تلاشى تجهمها فجأة، لتقول له ببسمة حبور:

ـ كعكة العليق تبدو شهية المذاق، فلماذا لا تطلب لي قطعة؟

*****

كان المبنى لسكنى طالبات الجامعة.. صحت مستنكرا كما يكون الاستنكار وبصري معلق باللافتة المعرفة بالمكان:

ـ بالطبع أنا لن أدخل!

لكن ما أثار جنوني ـ أو كاد بأن يثيره ـ أنني تبعتها للداخل وأنا لا زلت أتكلم، كأن قوى مجهولة تسيرني دونما إرادة مني! وما أعرفه عن تلك القوى فقط أن مصدر انبعاثها كان (كاتيا).. (ناتالي)؟

بزغ الاسم الثاني داخل رأسي كوميض آلة التصوير وبإصرار غريب، حتى أني تساءلت:

ـ من تكون (ناتالي)؟

وجدت نفسي خلف (كاتيا) ـ (ناتالي)؟ ـ في الممر البارد خافت الإنارة، لم أكن أبالغ عندما وصفت جاذبيتها بذات الخواص المغناطيسية، فهأنذا أنجذب خلفها حقيقة لا مجازا! وهمتي بالاعتراض واهنة بصورة غير طبيعية بالمرة..

في الطريق صادفنا بعض الفتيات، واحدة تحمل سلة ثيابها بغية الذهاب إلى حيث الغسالة، وأخرى تمضغ شطيرة وهي تقرأ من مرجع ضخم بالإنجليزية، وثالثة تضحك كالغانية وهي تثرثر بلا توقف عبر هاتفها النقال ـ على الأرجح تحادث شابا تعرفته حديثا ـ ورابعة لم تكن ترتدي سوى المنشفة بعدما فرغت من الاستحمام! فشعرت بوخزات مؤلمة في وجهي من الخجل الشديد.. ما الذي أفعله هنا؟ كيف جننت وتبعت تلك المجنونة؟!

(ناتالي)؟ (كاتيا)؟ لماذا أشعر بهذا الخواء العجيب؟

كما لو كنت أتحرك بلا روح كالدمية، الوهن استحوذ علي

كمس شيطاني مروع، ثمة ما ينبثق داخل ذهني ببطء، أمور كانت مخفية عني تتسرب إليه رويدا رويدا.. لماذا الفتيات يتجاهلن وجودي كما لو كنت شبحا؟ لا أحسبهن يرحبن بالذكور إلى هذا الحد!

ـ "المخبولة وصلت يا بنات!"

قالتها مكتنزة ركبت لأسنانها جهاز تقويم، فصرخت أخرى ممسكة بخناق شريكتها أمام باب حجرتهما:

ـ سأقتلك يا (غسق) الحقير!

ـ لن تجسر يا جنرال!

ثم استغرقتا بالضحك، واستغرقت أنا بالتعجب الكلي لوهلة..

اعترضت حسناء ممشوقة القد طريق (كاتيا)، فتوقفت الأخيرة محتضنة بقوة الأوراق التي بين يديها.. سألتها متهكمة وقبضتها موضوعة عند خاصرتها:

ـ كيف حال كاتبتنا المخبولة؟

تضاحكت الفتيات بمكر، فهمست الأولى متصنعة الأسف:

ـ قصدت الموهوبة! لست غاضبة مني يا عزيزتي.. أليس كذلك؟ أخبرينا ما الذي تحملينه بين ذراعيك كالمولود الحديث؟

خفضت (كاتيا) بصرها أكثر، وعلى استحياء همست مرتبكة:

ـ مسودة رواية..

ـ من تأليفك، أليس كذلك؟

ـ بلى..

ـ عن "أوتوقراطيا" التي ستدمر العالم؟

بقت (كاتيا) على صمتها، في حين صاحت فتاة أخرى بحماسة مفتعلة: وهل سينجح الجنرال في إنقاذنا؟

تخضب وجه (كاتيا) بحمرة الخجل القانية الآخذة بالتلاشي عن وجهي أنا، حاولت النطق بكلمة فقط، لكنني بدوت في تلك اللحظات كالمتفرج الذي يتابع مسرحية مشوقة، دون أن يملك حق التدخل.. الفرجة فقط لا غير!

وتعاود الحسناء الهيفاء سؤال (كاتيا) برجاء مصطنع:

ـــ هلا قرأت لنا بعضا من سطورها؟

ـــ لا أقدر..

ـــ لا تقدرين؟!

تضاحكن بمكر مجددا، وقربت الفتاة وجهها الذي يحمل أنفا منمشا من وجه (كاتيا)، وبتخابث سمج سألتها بصوت خفيض لكنه مسموع من قبل الفتيات:

ـــ أتكتبين ما يشين؟

ـــ ماذا تعنين؟

ـــ لا تكوني ساذجة، ألا تصفين على سبيل المثال العلاقة الجنسية التي تربطك معه؟

ـــ ماذا تقولين؟!

ـــ ألم تسمعي عن لغة الجسد يا فتاة؟

تحول وجه البائسة لحمرة صريحة جعلت ضحكات الفتيات منطلقة بجنون..

ـــ "إنها العلامة على صحة القول.."

ـــ "السكوت علامة الرضا!"

ـــ "هلمي أخبرينا كيف يعامل أنوثتك.."

ـــ "لا تخجلي يا عزيزتي، فالأنثى حرة حتى في بلادنا!"

صرخت في وجوههم وقد اشتعل غضبي:

ـــ ارحلن من هنا يا أسراب البوم المشئومة!

ـــ المخبولة!! المخبولة!!

تعثرت (كاتيا) أكثر من مرة، انزلقت منها بعض الأوراق فقامت بلملمتها وولوج غرفتها بسرعة.. لكن صبرا.. كيف صرت أنا داخل الغرفة من دون أن أتبعها؟ نظرت إليها بصمت وحيرة، كانت متماسكة تحاول ألا تبكي، بعزم نهضت من على فراشها الذي كانت جالسة عليه، فوضعت أوراقها التي احتضنتها بقوة على مكتبها..

هالني ما لمحت على سطح ذلك المكتب.. أليست تلك نظاراتي؟ نظاراتي الطبية التي كلفتني مبلغا كبيرا من المال! تلمست عيناي لاشعوريا لتبين أمر صدقته لاحقا، وهو كوني قد خضت تلكم الأحداث العجيبة من دون نظاراتي! من غير المعاناة من داء قصر النظر اللعين! لقد شفيت بقدرة قادر! تسمرت لدى وقوع بصري على رواية "الكونت دي مونت كريستو"، بردت الدماء في عروقي عندما رأيت تلك اللوحة المرسومة معلقة على أحد الجدران، الشابة الفلسطينية المليحة تحمل طفلها الرضيع الذي اغتالته طلقة صهيونية آثمة في جبهته الملائكية، فبكت عليه بدموع تنزف دما!

ألحان سيمفونية "فيور إيليس" المثيرة للشجن تتاهت لمسامعي، كانت دوما المفضلة لدي!

كانت (كاتيا) قد شغلت أسطوانة الموسيقار العبقري الأصم، ثم خلعت حذاءيها، وببطء شرعت تنزع فستانها! أشحت بوجهي الذي استعاد تلك الحمرة مجددا، هامسا بحرج لا يطاق:

ــ (كاتيا) أرجوكِ!

ــ اسمي هو (ناتالي)، وبإمكاني صنع ما أشاء أمامك..

بإمكاني صنع ما أشاء سواء بنفسي أو بك!

كان صوتها على قدر غير هين من الجفاء، صوت من عانت الأمرين، إلا أن هذا لم يمنعها من ستر بدنها بقميص نوم قصير.. هدأت نوعا متجهة صوب النافذة، لكن عقلي لم يهدأ، كان يواصل رحلة نبش الأسرار المثيرة بجنون، تسربات من رأس (كاتيا) ــ أو (ناتالي) ــ إلى رأسي عن معلومات كانت خافية عني، شعور عجيب عميق لا يمكن وصفه سوى بالضباب الآخذ بالانقشاع أخيرا..

قاومت ما تبقى من ذلك الضباب الحاجب لنور الحقيقة بالتذكر، بالتذكر الآن فقط..

*****

كانت قصة الحب التي عشتها مع (ناتالي) من أجمل القصص..

في زاوية "الكافيه" شبه المعتمة وجدتها.. آسرة، فاتنة، ذات لون قمحي وتبرج بسيط متقن، ترتدي فستانها الأخضر المحتشم، وتصفف شعرها الأسود الخلاب بالطريقة التي تنال إعجابي، وقد

بدت ساهمة حزينة..

ــ "أتسمحين لي بالجلوس؟"

تنبهت إلي قبل أن يتبدى الارتباك على وجهها لأبعد الحدود، فهمست أنا الآخر مرتبكا:

ــ لن أستغرب ولن أستاء إذا ما رفضتِ، لكنني أردت فقط معرفة المشكلة!

ــ المشكلة؟!

كذا ردَّت بارتباك مماثل، قبل أن تحتد بعض الشيء وتقول بعصبية:

ــ وهل أنت محلل نفسي؟ لربما طالب يود تجربة تخصصه الذي ناله حديثا علي!

رددت بلا انفعالات:

ــ لا أحسبكِ من النوع العدواني!

ــ حقا لست كذلك، أنا من النوع الذي تصطرع الأفكار داخل رأسه طيلة الوقت..

ــ وعن ماذا تدور تلك الأفكار؟

ــ عن الكثير من المواضيع..

وبشرود استطردت:

ــ أحيانا لا أعلم لماذا لا أكون..

وصمتت ، فتابعت عنها مهتما:

ــ مثل سائر الناس؟

تأملتني مطولا قبل إجابتها الهامسة:

ــ أجل!

ــ اغفري لي تدخلي، لكنني خمنت بشدة بأنك تمارسين الكتابة، فهل أنا محق؟

ردَّت بخجل لا يوصف:

ــ ليس تماما، أشعر أنني أمارس إنما حين أمسك بالقلم لتدوين مثل تلك الهموم..

ــ إذن فأنتِ كاتبة!

ــ لم تصر على جعلي كذلك؟

تأملتها مليا قبل همسي بحزن:

ــ قد يكون ذلك أوجه سبب للحياة يا آنستي!

ــ لم تقول ذلك؟

ــ المعذرة على وقاحتي، لكنني أظن أنه من المؤسف انتحار فتاة أخرى!

أطالت حملقتها بوجهي، ثم سألتني مندهشة:

ــ كيف؟ كيف علمت؟ هل أخبرتك (نسرين)؟

ــ لا أعلم من هي (نسرين) يا آنسة، إنها آثار السكين على أوردة معصمك التي أخبرتني!

تنبهت للندوب الواضحة، فأمسكت بها لإخفائها قائلة بضيق شديد: لست أطيق الحياة، لكنني لن أنتحر بكل تأكيد..

ــ لكنك حاولتِ رغم ذلك..

ــ ما الذي تريده مني بالضبط؟

ــ أرجو أن تصغي إليّ قليلا.. أتمانعين لو جلست؟

ظلت على صمتها وشكها، فجلست بحذر قبل أن أشبك أصابعي ببعضها قائلا بتمهل: كنت دائما أجلس في زاوية "الكافيه"، أرمق الناس متسائلا عن كنه الحياة التي يعيشونها، أتراهم سعداء بها أم يتظاهرون بالسعادة فقط؟

شعوري بالإحباط دائم، أفكر، لن أجد سعادة تشابه سعادتهم المزعومة تلك على الأقل، ولن أضحك يوما من أعماق قلبي حتى لمجرد نكتة بسيطة أو على موقف طريف، شعرت بالأسى كوني لم أفهم سر تعكر مزاجي والجميع مبتسم.. والجميع ضاحك!

ثم رأيتك! كان ذلك قبل عدة أسابيع، دائما تأتين في نهاية كل أسبوع لتجلسي في ذات المكان والتعاسة تغزو ملامح وجهك، كدت أقسم لما وقع بصري عليك أول مرة بأنك تفكرين بذات الأمور التي تجول ببالي دائما! ذلك ما أردت قوله واعذريني على تطفلي..

ونهضت كي أعود من حيث أتيت، فاستوقفتني بنبرة لطيفة:

ــ انتظرْ..

التفت نحوها محرجا، توقعت أن تشتمني أو تنهض لصفعي، لكنها واصلت همسها الهادئ:

ــ ما اسمك؟

حككت مؤخر عنقي قائلا ببسمة:

ــ هل تؤمنين حقا بأهمية الأسماء؟

أسماء كثيرة، إذ يبدو أنني كنت حريصا على اسمي كثيرا، فقد كان لدي اسم، اسم كغيره من أسماء العامة، ربما لإحدى الشخصيات التاريخية العظيمة، أو من خصال العرب القديمة، لا أعلم ما هو اسمي الحقيقي حتى..

في ذلك اليوم الغائم ـ عقب شهور من لقائي بناتالي ـ كنت واقفا على الرصيف، غارقا في واحدة من تأملاتي الساذجة، أذكر أنها تمحورت حول البشر الذين يروحون ويجيئون، فكنت أتساءل: ماذا لو التفتوا لبعضهم البعض في كل مرة كأهل دار واحدة؟ يلقون التحية على بعضهم كسكان القرى البسطاء الذين يعيشون أحيانا كأسر متضامنة تحت سقف واحد، أبذلك تحل بعض مصائبنا؟ أتكون تلك لبنة السلام الأولي الأزلي؟

لم أشعر إلا ومقدمة سيارة منطلقة بسرعة جنونية تقفز من الشارع إلى الرصيف حيث كنت واقفا أتأمل!

ومن ثم.. لا جديد على الجبهة الغربية!

*****

ـ "فيم تفكر؟"

انتفضت نفضة خفيفة ، فوجدت نفسي في حجرتها، على ألحان (بيتهوفن) نتسامر كما الحلم! كانت لا تزال واقفة بجوار النافذة تنظر لي بقلق، فهمست بحيرة التائه:

ـ أنتِ أعلم!

اقتربت مني بحذر، فما ان بلغتني حتى أراحت رأسها على

كتفي هامسة هي الأخرى بوجل:

ـ أذكر لقائنا أول مرة أيضا!

ـ كان كالحلم!

ـ كان كالمعجزة التي انتشلتني من قعر دوامة الهلاك..

ـ عندما رأيتك أول مرة خشيت أن أفقدك.. لذا أقدمت على خرق عاداتك وفعل ما لا تفعله؟ التودد لأنثى؟

ـ لستُ مغازلا بارعا كديدن شبان هذه الأيام، كان شعوري بأن ثمة.. مهمة محددة! هل بإمكانك تفهمي؟

ـ إنه عقلي، وتلك مخيلتي!

ـ "السايكودارما"! تغيير شخصية الفرد حيث يطلب منه تمثيل دور مختلف، كي يكتسب فهما جديدا لسلوك الآخرين وسلوكه هو نفسه، أذلك ما كنت تمارسينه؟

ـ كفَّ عن الهراء وراقصني!

ـ وما حكاية القطط؟ قط ينتحر بسبب الفراغ أو لفشله في الحب؟ "تاكسو بلاسموسيز"؟ الظاهر أنك تحبين القطط كثيرا!!

ضحكت بصوت رقيق قائلة وهي تلكمني برفق في صدري:

ـ بحق الله أن تصمت!

ولم تنظر في وجهي حتى قمت برفع ذقنها بأناملي..

ـ "أحقا أحببتني؟"

لم تتمكن من المواصلة، ابتعدت عني وجلست على طرف سريرها قائلة بنبرة حزينة:

ـ ألم أقرر كتابة رواية كاملة عنك؟

تبسمتُ بحزن، لم أشعر بحاجة لسؤالها عن شيء بعد، لقد أضحت الصورة كاملة مكملة ..

لم يكن (غسق الغبرا) شريرا في الواقع، لكن (ناتالي) قامت برسم شخصيته في روايتها بما يشابه الجانب المتمرد من شخصيتي المدحورة، ذاك الجانب الطليق كالشيطان، الساعي بكل جوانحه للمغامرة والانتقام من الاعتياد والروتين، كان (غسق) كالصقر الحر المحلق بكل قوة، فتبعه الجميع لأنهم رأوا فيه رمزا سيحررهم من قيود أرادوا الخلاص منها منذ زمن! على النقيض منه كان (حصيف الألمعي) هو صوت الضمير لدي، جانب النقاء الوادع الذي يحاول دائما إنارة طريقي كي لا تستحوذ علي شرور الجانب الذي يمثله (غسق)، كان ملاكي الحارس الذي يقيني شرور الزلات، فمن أعلم بصنائعي غير الله وضميري؟ انتقام من (غسق)، انتقام من المجتمع بأسره.. يا للكراهية التي عشتها!

سجني، حمل (ميريام) وهلاك (سيرين) ـ شخصيتان وهميتان أيضا ـ معارك "أوتوقراطيا" وصراعاتي الداخلية ما بين الملاك المتمثل بحصيف، والشيطان الذي تبدى بصورة (غسق)..

قد تكون الأسماء حقيقية وقد لا تكون.. العبارات التي كنت أقولها لكاتبا بوقاحة ولا أعلم لماذا!

كلها أمور غير متصلة بواقعنا الروتيني المرير، حكايات قد تحدث في الروايات حقا! لكن حدوثها على أرض الواقع ليس

مستحيلا، فمن حسن الحظ بأن ثمة فرص لحدوثها وإن كانت متعسرة للغاية.. أحيانا أظهر ضعيفا، أحيانا أخرى تسري القوة في كياني بمجمله، ربما حسب أهواء فتاتي!

التلاحق السريع في الأحداث، والذي بدا غير منطقي في العديد من الأوقات.. ماذا عن النهاية؟

قالت (ناتالي):

ـ في رأسي ثلاث نهايات، لازلت حائرة..

ـ ثلاثة دفعة واحدة؟

تحسستُ صدري راسما على شفتيّ بسمة متألمة، وقلت لاهثا:

ـ هل جعلتني مريضا بالربو؟ في أغلب الأحداث كنت أجد عسرا في التنفس، ولكن عقب تدخين سيجارة أجد نفسي مرتاحا!

بدت منزعجة وهي تقول بارتباك:

ـ إنه تأثير الرواية السابقة، أنت تذكرها! لقد كان بطلها يعاني عجزا في التنفس من دون السجائر!

ـ هذا خلط لا يجب أن يحدث! فهذه رواية مختلفة تماما!

ـ إنه خطأي وأعتذر عنه.. والآن أود سماع رأيك في كل شيء عايشته!

ـ كل شيء؟

فكرت بعقلية أستاذ النقد، التلميح لبعض الاستخفاف في ملامح الرواية، بأن قضية دفاع رجال المناصب الرفيعة في الحكومات عن أبنائهم قضية ليست بتلك البساطة، فهم قد يفترسونهم من أجل الحفاظ

على تلك المناصب كما يصنع التمساح مع أبناءه، ربما تلقين درس عن السرد والشخصيات والحوار والبيئة، أو عن الأحداث المتلاحقة الكفيلة بجعل القارئ يلهث من فرط سرعتها، مع اقتراح انتقاء عنوان للرواية غير متحذلق هذه المرة! لكنني وعوضا عن ذلك كله وجدت نفسي أجلس على السرير بجوارها صامتا كالأموات.. ثم قلت بصوت خفيض مفعم بالحنو:

ـ الحالمة بعالم مثالي.. ما الذي يمكن قوله بعد ذلك كله؟

لقد فقدت حياتي، ووجودي صار جزءً من وجدانها وكيانها، مجرد ذكرى داخل عقلها.. لم أكن أفكر أو أتخيل، بل عقلها الذي كان يفعل، فوجودي مجرد وهم صدر عن مخيلتها الخصبة، ربما لدرجة المرض! لذا شعرت بتأنيب عميق، شعور تملكني بأنني سببت لها الأذى دون قصد مني.. قلت لها بحزن ورجاء:

ـ سامحيني يا (ناتالي)..

ـ على ماذا أسامحك؟

ولما تلاقت أبصارنا، كانت دموعها تهطل كزخات المطر النقية.. ترقرق الدمع في عينيّ أنا الآخر، لكنني التفت لدموعها، فمسحت بعضها بأناملي هامسا:

ـ سامحيني!

*****

كانت النجوم كأجمل ما يمكن، وقد توسطها القمر بابتسامته التي حكوا عنها قديما..

وكان هو جالسا بقربي.. قلت له ودموعي تغافل عيني لتتسرب بحذر قبل أن تهبط بغزارة:

ـ على ماذا أسامحك؟

شعرت بملمس أنامله الحانية على وجنتي، فمسحت بعضا من دموعي التي أغرقته.. ارتميت بغتة في أحضانه باكية بحرقة، شعوري بالوحدة كان لا يوصف..

كنت أعانق الهواء معانقة الحبيب الذي لا وجود له، أو الذي كان موجودا في يوم من الأيام قبل أن يسلب مني..

ورغم هذا فكرت:

لربما وجدت أخيرا بعض السعادة التي بقيت أبحث عنها منذ أمد بعيد!

كاتيا إحسان

الأول من يناير

السيرة الذاتية

** وائل محمد صالح قاسم رداد

* كاتب ورسام أردني الجنسية

* مواليد ١٩٧٩ ومقيم بدولة الإمارات العربية المتحدة

* بكالوريوس محاسبة من جامعة القدس المفتوحة

** فاز في مسابقات أيام الشارقة المسرحية في التأليف المسرحي عن مسرحيات: سقوط الملاك الأخير/ الرجل الذي قتل أبو زيد الهلالي/ "ديستوبيا"..

** فاز في مسابقات أنجال الشيخ هزاع بن زايد آل نهيان لثقافة الطفل العربي عن قصة "دموع الجسد الصغير"..

** **صدر للكاتب:**

* "المصعد رقم ٧" ــ رواية ــ دار بلاتينيوم بوك الكويتية

* "مذكرات الجرذان الغريقة"ــ رواية ــ دار ممدوح عدوان سورية

* "جنازة الملائكة" ــ رواية ــ دار رواية السعودية

* "موت سريري" ــ رواية ــ دار اكتب للنشر بالقاهرة ٢٠٠٩

* سيمفونية وادى الظلال ــ رواية ــ سندباد للنشر بالقاهرة ٢٠١٠

** **للتواصل مع الكاتب:**

waelnovel@gmail.com

wael@platinum-book.com